الآياتُ المَنصُوصُ عليها بـ"جَوامِع الكَلِم" عند العَلاَّمَة مُحَمَّد الطَّاهِر بن عَاشُور

د/ محمَّد بن ناصر بن يحيى جَدُّه
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك
ورئيس قسم الشّريعة بكلية الشَّريعة والقانون
بجامعة جازان

المُلخَص

الحمد لله ، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ، وآله وصحبه ومن والاه ، ومَن سار على نهجه واتبع هداه ، وبعد : فإنّ كتاب الله ـ تعالى ـ بما حواه من معارف ، وبلاغة ، وحسن بيان لا ريب أنه تنزيلٌ من حكيم حميد، وفيه من دلالات الألفاظ الشيء الذي يخلب الألباب، وهو كلّه معجزٌ مبين، وثمّة فيه آيات توافر لها أنها من "جوامع الكَلِم" بما حوته من معاني كثيرات مع قصر الألفاظ وقلّتها ، وقد تناول هذا البحث طرفاً منها عند عَلَم مِن أعلام التفسير الحديث، وهو: العلامة محمَّد الطاهر بن عاشور [ت ١٣٩٣هـ] ، عليه مِن الله ـ تعالى سحائب الرّحمة والغفران ـ، نصَّ عليها في تفسيره القيّم "التحرير والتنوير"، وقد عمد البحث إلى جَمْعِها من ذاك السّفر، ومِن ثَمَّ عَرْضِهَا ، مُوازناً بين كلامه ـ رحمه الله ـ فيها وكلام غيره ، وذلك في ثلاثة عشر موطناً من تفسيره ، وعُنون له بـ"الآيات التي نصّ العلامة محمَّد الطاهر ابن عاشور على أنها من "جَوامع الكَلِم" جمعٌ وعرضٌ وموازنةٌ"، وقد أتى هذا البحث في مقدّمة، وأربعة مباحث ، وخاتمة، وفهرسين .

المبحث الأول: وبه أربع مقدّمات ، وذلك في أربعة مطالب .المبحث الثاني : وبه خمسة مطالب . المبحث الثالث: وبه أربعة مطالب . والمبحث الرابع : وبه أربعة مطالب .

والباحث يحسب أنه قد أضاف بهذا البحث الوجيز المتواضع لبنةً إلى صرح الدراسات القرآنية بما ضمّنه من معارف ، ومقارنات ، ونتائج ، وتوصيات .

كلمات مفتاحية: "جوامع الكَلِم القرآنية"، "القواعد الفقهية"، دخول المفاضلة، القِصَاص، بلاغة الإيجاز، الفلاح، سند المنع، أسباب ظهور الفساد .

مُقَدِمَةٌ :

الحمد لله رب العالمين ، والصّلاة السّلام على المصطفى الأمين ، وعلى آله وصحبه الطيبين ، ومَن سار على نهجه ، واقتفى إلى يوم الدين . وبعد :

فإنّ كتابَ الله ـ تعالى ـ هو الكتابُ المعجزُ الذي أبهر الأولين والآخرين بقوّة ألفاظه، واتساع دلالاته ، ووفرة معانيه، وتعدّد وجوهه البلاغية ، فوقفت قريش ومَن وراءها ومَن معها وهم العرب الفُصَحَاء، وأهل اللّسن الأقحاح أمامه لا يحرّكون ساكناً ، ومَن ثَمَّ خضعوا له بعد طول لأيٍ وعنتٍ ، وأذعنوا له فكان حظّهم في الدُّنيا والآخرة . وثمَّة فنٌّ عتيدٌ يندرج تحت فنون البلاغة يُسمّى بلاغة الإيجاز، اصطبغت به آياتُ الذِّكر الحكيم ، وهو في بعضها أظهر من بعض ، وكذا كَسَا أحاديث المعصوم ـ ﷺ ـ ، فأخذ بريقها يخطف العيون روعةً وجلالاً ، وبهاءً وحسناً وجمالاً . وأتت "جوامع الكَلِم" في ذَيْنِكَ المصدرين ـ الكتاب والسنة ـ تؤتي أُكُلَها كلَّ حين بإذن ربّها، فزادتِ اليقينَ يقيناً في قلوب المؤمنين، وأقامتْ قلوبَ المخالفين على الجادّة الحقّة . وقد كان للعلامة محمَّد الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ [ت ١٣٩٣هـ] ، ـ وهو اللّغويُّ الأريبُ، والبلاغيُّ النجيبُ ـ القِدْح المُعَلَّى في تلّمس تلك الجوانب البلاغية في الآيات القرآنية، ونصَّ عليها تحديداً ـ كما أتت في الخبر النبوي الشّريف() ـ، وسمّاها

"جوامع الكَلِم" ، وصرَّح بها عند آيات عديدة في تفسيره الشَّرِ "التحرير والتنوير"، فأحبَّ راقمُ هذه الأسطر أن يتفيأ ظلالها كما تفيأ القوم ؛ لعلّه يَحْظَى بشيءٍ مما حَظِيَ به الأُوَل ، فكان عنوان هذا البحث موسوماً بـ«الآيَاتُ المنصوص عليها بـ"جوامع الكَلِم" عند العَلاَّمَة محمَّدالطَّاهِر بن عَاشُور جَمْعٌ وعَرْضٌ ومُوازنةٌ».

- خطة البحث : وقد أتى البحث مُقَسَّماً إلى مقدّمة ، وأربعة مباحث ، وخاتمة ، وفهرسين .

المقدمة : وفيها خطة البحث ، وسبب اختياره، وحدوده، والأسئلة التي سيُجيب عليها ، ومنهجه .

ـ المبحث الأول : أربع مُقَدِّمات بين يدي البحث في أربعة مطالب :

المطلب الأول : تعريف "جوامع الكَلِم" .

المطلب الثاني : دخول المفاضلة بين آي القرآن الكريم .

المطلب الثالث : وجه وصف بعض الآيات بأنها من "جوامع الكَلِم" .

المطلب الرّابع : العلاقة بين "جَوامع الكَلِم" و"القواعد الفقهية".

ـ المبحث الثاني: الآيات المنعوتة بـ"جوامع الكَلِم" عند العلامة ابن عاشور في الثلث الأول من القرآن . وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : آيـةُ سـورة البـقرة [٢٨٦] ، وفيها : الـدُّعاء المتضمّـن لخصائص الشَّريـعة الإسلامية .

المطلب الثاني : آيةُ سورة البقرة [١٧٩] ، وفيها : إبطال التكايل بالدّماء ، وإبطال قتل واحدٍ من قبيلة القاتل إذا لم يظفروا بالقاتل .

المطلب الثالث : آيةُ سورة النساء [٣٢]، وفيها : النهيُ عن التمنّي، وتطلع النفوس إلى ما ليس لها ؛ دَرْءاً للشُّرور .

المطلب الرّابع : آيةُ سورة الأعراف [٦٣] ، وفيها : إبطالٌ لدعوى الخَصْم ، والاستدلال لصدق دعوى المجادِل .

ـ المبحث الثالث : الآيات المنعوتة بـ"جوامع الكَلِم" عند العلامة ابن عاشور في الثلث الثاني من القرآن. وفيه مطلبان :

المطلب الأول : آيةُ سورة المؤمنون [١] ، وفيها: بيان أنَّ الفلاح غاية كلّ ساع في عمله .

المطلب الثاني: آيةُ سورة القصص [٦٤]،وفيها: عِدَّة معان يُفيدُها لفظُ الآية، وكلّها مقصودة.

ـ المبحث الرابع : الآيات المنعوتة بـ"جوامع الكَلِم" عند العلامة ابن عاشور في الثلث الأخير من القرآن . وفيه سبعة مطالب :

المطلب الأول : آيةُ سورة الرُّوم [٤١] ، وفيها : وجوهٌ عديدة صالحة من الموعظة .

المطلب الثاني : آيةُ سورة الرُّوم [٤٤] ، وفيها : بيان ما لا يُحصى من المضارّ في الكفر على الكافر ، وأنه لا يَضُرُّ غيرَه ، مع تمام الإيجاز.

المطلب الثالث: آيات سورة الصافات [١٨٠ـ١٨٢]، وفيها: إيذانٌ بانتهاء السّورة على طريقة براعة الختم .

المطلب الرّابع : آية سورة عبس [١٧] ، وفيها : نهاية الإيجاز، وأرفع الجزالة، بأسلوب غليظ، دالٍّ على السّخط، بالغ حدَّ المَذَمَّة، جامع للمَلامَة، ولم يُسْمَع مثلُها قبلَها .

المطلب الخامس : آية سورة اللَّيل [٢١] ، وفيها: يندرج كلّ ما يرغب فيه الرَّاغبون .

المطلب السّادس : آية سورة الشّرح [٧] ، وفيها : جملة كثيرة من المعاني .

المطلب السّابع : آيتي سورة الزّلزلة [٧ـ٨] ، وفيها : موعظةٌ جامعةٌ فاذَّةٌ .

الخاتمة : وفيها أهم النتائج والتوصيات .

الفهارس : فهرس المصادر والمراجع .

فهرس الموضوعات .

سبب اختيار البحث :

يرجع سبب اختيار هذا الموضوع لأمور منها :

١. أهمية الموضوع من حيث تناوله لجانب مهم من جوانب بلاغة القرآن الكريم .
٢. جِدَّة الموضوع ؛ فهذا الموضوع ما زال بِكْراً ، ولم يصل لعلمي المتواضع مَن سبق لتناول هذا الموضوع بهذه الآلية المنتهجة .
٣. أنَّ الدراسة الموازنة لتلك المواطن المتوافرة فيها إثراءٌ هامٌّ لجوانب معرفية ، وأخذٌ للموضوع من زوايا متعددة ، الأمر الذي يُطلع الباحث على مدى التراكم المعرفي ، والتطوّر التفسيري الحاصل عبر سلسلة الزمن،وعددٍ من المناهج التفسيرية المُتَمَثِّلَة في عِدَةِ التفاسير المقارنة .
٤. الرّغبة في إبراز التميُّز المشهود في عرض العلامة ابن عاشور ـ رحمه الله ـ لتلك الآيات الكريمات ، وتجلية كونها من "جوامع الكَلِم" .

- **حدود البحث :**

سيتناول البحث ـ بحول الله تعالى ـ تلك الآيات الكريمات التي قال عنها العلامة بن عاشور ـ رحمه الله ـ تحديداً في تفسيره "التحرير والتنوير" : إنها من "جوامع الكَلِم"،لا أَعْدُوهَا إلى غيرها، مما قد يكون ذَكَرَهُ بصيغ مخالفة[1] كـ"الكلام الجامع"، أو "أجمع آية"، أو "أجمع وأوجز"، أو غير ذلك من الصِّيغ التي لا يتسع هذا البحث الوجيز لعرض آياتها .

- وقد جاء هذا البحث ليُجيب عن أسئلة عِدَّةٍ ، منها :

١. ما هي "جوامع الكَلِم" لغة واصطلاحاً؟، وهل لها بهذا التركيب حضورٌ في النصِّ النبوي الشّريف ؟، وما وجه

---

(١) **انظر مثلاً : التحرير والتنوير** (٢/٢٩١)، و(٨/١٧، ١٦٩، ١٩٤)، و(٩/١٠٣، ٢٢٩) ، و(١١/٢٢٠)، و(١٤/٢٥٩)، و(١٧/٣٢٤، ٢٠٤، ١٦٦)،و(٢١/٢١٧) ، و(٢٧/٢٩)، و(٢٨/١٦٦)، و(٣٠/٥٨٤، ٢٢٧).

وصف بعض الآيات أنها مِن "جوامع الكَلِم"؟. وهل تقع المفاضلة بين آيات الذكر الحكيم ؟، وإذاً فما حظُّ الآيات التي أُطْلِقَ عليها أنها مِن "جوامع الكَلِم" من تلك المفاضلة؟. وهل بين "جوامع الكَلِم" و"القواعد الفقهية" أيّ ارتباط ، أو وجوه اتفاق واختلاف ؟.

٢. ما هي الآيات والمواطن التي نصَّ العلامة ابن عاشور ـ رحمه الله ـ على أنها مِن "جوامع الكَلِم" .

٣. كيف تناول العلامة ابن عاشور ـ رحمه الله ـ تلك الآيات والمواطن بالبيان ، وكيف تعامل معها، وكيف وظّفها للدّلالة على أنها "جوامع كَلِم"؟.

٤. هل كان تنصيصه ـ رحمه الله ـ عليها سَبْقاً تفرّد به عن غيره ؟، أم أنه لَحَظَ الفكرة عند غيره فتأثّر بذلك ، ومن ثَمَّ طوّرها وأخرجها في ثوبها الأخير بما سطّره في تفسيره عنها معتمداً على ملكته اللّغوية والبلاغية والمعرفية .

٥. هل نصّ على تلك الآيات أنها من "جوامع الكَلِم" مَن أتى بعد الطاهر متأثراً به؟.

- **منهج البحث المُتَّبع :**

البحث يدور في أغلبه على منهج (استقرائي، وصفي، تحليلي)، مع مرعاة الأمور الآتية:

١. ترك التعريف بالأعلام الواردة أسماؤهم في متن البحث .

٢. ترقيم الآيات وذكر اسم السُّورة في صلب الدّراسة ، وكذا تخريج الأحاديث والآثار برقم الجزء والصّفحة ورقم الحديث، مع ذكر الحكم على الحديث الوارد في غير الصحيحين قدر الإمكان ، وعزو الأقوال إلى مظانّها قدر الاستطاعة.

٣. عزو أبيات الشّعر إلى قائليها قدر الإمكان ، وتوثيقها .

٤. ما كان من تعليقات فإنها تثبت في الحاشية؛ تخفيفاً للمتن.

٥. إرجاء ذكر أسماء مؤلّفي كتب المراجع والمصادر، وطبعاتها إلى فهرسها؛ خشية الإطالة، إلا ما كان منها متعدّد الطبعات فَأُبيِنُ عن النسخة التي رجعت إليها بشيءٍ يميزها، إما باسم المحقق، أو بالناشر.

٦. في جانب الدراسة الموازنة يبدأ البحث بأخذ الآية التي نصَّ عليها ابن عاشور ـ رحمه الله ـ أنها من "جوامع الكَلِم" ، ومن ثَمَّ يتمّ نقل كلامه عنها بنصّه ، وقد يُحْذَفُ منه أحياناً ؛ لمصلحة ، وحيناً يُنقَلُ النصُّ كاملاً وإن طال ؛ إذ في الإطالة تكميلٌ لجوانب خادمة هامّة، وليس القصد من ذلك التزيّد ـ علم الله ـ، بعدها يأتي دور الدراسة الموازنة مفصولاً بينهما بخطٍّ حاجز ، وتكون تلك الدراسة بمحاولة استعراض جملة عديدة من التفاسير السابقة لعصر الطاهر، ـ لا سيما ما له عناية بهذا الجانب ـ، وكذا المعاصرة واللاحقة، والنظر في نصوصها التفسيرية عند الآية الكريمة، وإثبات إلى أيّ حدٍّ وافقها الطاهر فيما ذهبَ إليه ـ أعني : السّابقة ـ ، أو هي وافقتِ الطاهر ـ أعني: المعاصرة والمتأخرة ـ في كلامه ، ومِن ثَمَّ الخروج بحكم يُظهر سبق الطاهر ، أو تماشيه مع سابقه .

٧. قد تُنقَل نصوصٌ كثيرة من عند المفسّرين قديمهم وحديثهم ، وتُسَاقُ إبّان الدراسة مرتبة على حسب التسلسل الزّمني ، ـ وربما تُلحظ كثرتها ـ ، بينما الهدف منها إعطاء صورة واضحة لجوانب الاختلاف والاتفاق بينها وبين النصّ المقارن به من كلام الطاهر، وفي بعضها ما ليس في الآخر، وليس الغرض منها الحشو والتزيد ـ علم الله .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين ،،،

المبحث الأول : أربع مُقَدِّمات بين يدي البحث في أربعة مطالب :

المطلب الأول : وفيه مسألتان : الأولى : تعريف "جوامع الكَلِم" .

لعل من المناسب بين يدي البحث تعريف كلمة "جوامع الكَلِم"؛ حتى يسهل التعاطي بعد ذلك مع مفردات البحث ، وتتبين كثير من مطالبه .

تُعَرَّف لفظة "جوامع" لغةً[٢] أنها جمع "جامع"، و"جامعة"، جمع تكسير، مادتها "جَمَعَ" التي تدلُّ على تأليف المُتَفَرِّق، أو ضمُّ الشيء بتقريب بعضه من بعض، يُقال: جمعته فاجتمع.

قال ابن فارس ـ رحمه الله ـ : «الجيم والميم والعين أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على تَضَامِّ الشّيء. يقالُ : جمعتُ الشَّيء جمعًا. والْجُمَّاعُ : الأُشَابَةُ من قبائلَ شتَّى ... . ويقالُ للمرأة إذا ماتَت وفي بطنها ولَدٌ: ماتت بجُمْعٍ. وَيُقَالُ : هي أن تموت المرأةُ ولم يمسسها رجلٌ. ومنه قولُ الذَّهنَاءِ : «إنّي منه بِجُمْعٍ». والجَامِعُ : الأتانُ أوَّل ما تَحمِلُ . والجَمْعُ : كلُّ لونٍ من النَّخلِ لا يُعرفُ اسمُهُ، يقالُ : ما أكثرَ الجَمعَ في أرضِ بني فلان؛ لِنخلٍ خرج من النَّوى .

وتقولُ : استَجمعَ الفرسُ جرياً. وَجَمْعُ : مكة، سمّي؛ لاجتماعِ النَّاسِ به، وكذلكَ يومُ الجمعة . ويقالُ فَلاةٌ مُجْمِعةٌ : يجتمعُ النَّاسُ فيها ، ولا يتفرّقون ؛ خوفَ الضَّلالِ. والجَوَامِعُ : الأغْلالُ. والجُمْعَاءُ من البهائمِ وغَيرِها : التي لم يذهب من بدَنها شيء»[٣] .

---

(٢) **انظر في ذلك** : العين (٢٣٩/١ـ٢٤١) مادة "جمع"، وتهذيب اللُّغة (٢٥٦/١ـ٢٥٧) مادة "جمع"، والصِّحاح (١١٩٨/٣) مادة "جمع"، ومجمل اللُّغة (١٩٨/١) ، ومعجم مقاييس اللّغة (٤٧٩/١) مادة "جمع"، ولسان العرب (٥١/٨ـ٥٤) مادة "جمع" ، وتاج العروس (٤٦٧/٢٠) مادة "جمع" .

(٣) معجم مقاييس اللغة (٤٧٩/١) مادة "جمع" . **والدَّهناء الوارد اسمها في النصّ الآنف** ، هي دَهْنَاء بنت مِسْحَل امرأة العجاج ، **قالت للعامل** : أصلح الله الأمير : إني منه بِجَمْع ، **أي**: عَذْرَاء ، لم يفتضَّني . **انظر** : الصِّحاح للجوهري (١١٩٨/٣) مادة "جمع" .

وجِمَاع الشي بالكسر : جَمْعُهُ ، يقال: جِمَاع الخِبَاء الأخبيَة، أي : جَمْعُهَا؛ لأنّ الجِمَاع ما جمع عدداً، يُقال : الخمر جِمَاع الإثم، أي : مَجْمَعُهُ ومظنّتُهُ .

والإجماع : أن تجمع الشيء المتفرّق جميعاً، فإذا جعلته جميعاً بقي جميعاً، ولم يكد يتفرّق ، كالرأي المعزوم عليه المُمْضَى[٤] . وأمر جامع: يجمع الناس . قال الراغب ـ رحمه الله ـ : «أمر جامع ، أي : أمرٌ له خطر اجتمع لأجله الناس ، فكأنَّ الأمر نفسه جَمَعَهم»[٥] .

وأمّا "الكَلِم" لغةً[٦] فهي اسم جنس جَمْعِي[٧] ، واحِدُهُ كلمةٌ .

قال ابن فارس ـ رحمه الله ـ : «كلم الكاف واللام والميم أصلان : أحدهما يدلُّ على نُطْق مُفْهم، والآخر على جِرَاح .

فالأول الكلام تقول : كلمته أكلّمه تكليماً، وهو كليمي إذا كلّمك أو كلّمته ، ثُمّ يتّسعون فيسمّون اللَّفظة الواحدة المُفْهِمَة كلمةً، والقصَّة كلمة، والقصيدة بطولها كلمة، ويجمعون الكلمة كلمات وكَلِماً ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ تُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء:٤٦] .... »[٨] .

والكَلام في اصطلاح النُّحَاة : القول المعروف، أو ما كان مكتفياً بنفسه، بحيث اجتمع فيه أمران : اللَّفظ، والإفادة.

والكَلِم: ما تركّب من ثلاث كلمات فأكثر؛ سواءً أكان لها معنى مفيد، أم لم يكن لها معنى مفيد .

وبين الكلام والكَلِم عمومٌ وخصوصٌ وجهي ، فالكَلِم أعمّ من جهة المعنى؛ لانطلاقه على المفيد وغير المفيد، وأخصّ من جهة اللَّفظ ؛ لكونه لا ينطلق على المركّب من كلمتين، والكلام أعم من جهة اللَّفظ؛ لانطلاقه على ما تركب من كلمتين فأكثر، وأخص من جهة المعنى ؛ لكونه لا ينطلق إلا على المفيد . فنحو : "زيدٌ قام أبوه" يُعتبر كلاماً؛ لوجود الفائدة ، وفي نفس الوقت كَلِمٌ ؛ لوجود الثلاثة بل الأربعة ، بينما "قام زيدٌ" يُعتبر كلاماً لا كَلِم ؛ لفقده شرط العدد[٩] .

وقال الجوهري ـ رحمه الله ـ : «الكلام : اسم جنس يقع على القليل والكثير، والكَلِم لا يكون أقلّ من ثلاث كلمات؛ لأنه جمع كَلِمَة ، مثل نَبْقَة ونَبَق، ولهذا قال سيبويه : «هذا باب علم ما الكَلِم مِن العربية»»[١٠] . ولم يقل ما الكلام ؛ لأنه أراد نفس ثلاثة أشياء : الاسم، والفعل، والحرف ، فجاء بما لا يكون إلا جمعاً ، وترك ما يمكن أن يقع على الواحد والجماعة[١١] .

وإذا ثبت ما تقدّم ، فالكلام الجامع هو: كلامٌ قلّت ألفاظُه، وكَثُرت معانيه[١٢] .

وتُعَرَّف الآيات المسافة في البحث المنعوتة بـ"جوامع الكَلِم" بأنها آياتٌ ألفاظها قليلةٌ موجزةٌ، ومعانيها جزيلة متعدّدة[١٣] .

الثانية : ورود وصف "جوامع الكَلِم" في الأثر، وبيان العلماء المراد بذلك .

أتت نصوصٌ نبويةٌ كريمةٌ تصِفُ مُتَلَقّي القرآن ـﷺـ أنه كان يتكلّم بـ"جوامع الكَلِم" ، أي : أنّ كلامه ـﷺـ كان موجزاً قليل الألفاظ ، وفي نفس الوقت كثير المعاني .

فعن أبي هريرة ـرضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ـﷺـ قال : «فُضِّلْتُ على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرُّعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وخُتِم بي النبيُّون»[١٤] . وعنه ـرضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـﷺـ : «أُوتيت جَوامِعَ الكَلم ، وجعلَتْ لي الأرضُ مسجداً

---

(٤) **انظر في ذلك** : تاج العروس (٤٦١/٢٠، ٤٥١) مادة "جمع" .

(٥) مفردات الراغب (٢٠١) .

(٦) **انظر في ذلك** : العين (٣٧٨/٥) مادة "جمع"، وجمهرة اللغة (٩٨١/٢) مادة "كلم"، وتهذيب اللغة (١٤٧/١٠) مادة "كلم" ، والصِّحاح (٢٠٢٣/٥) مادة "كلم"، ومعجم مقاييس اللّغة (١٣١/٥) مادة "كلم"، وتاج العروس (٣٦٩/٣٣ـ٣٧٤) مادة "كلم" .

(٧) **اسم الجنس الجَمْعِي**:هو أحد أنواع الجمع،أو أحد أنواع جمع التكسير،وهو ما له مفرد يشاركه في لفظه ومعناه معاً، ولكن يمتاز المفرد بزيادة تاء التأنيث ، أو ياء النسب . **انظر** : الخليل معجم مصطلحات النحو العربي (٥٨) .

(٨) معجم مقاييس اللغة (١٣١/٥) مادة "كلم" .

(٩) **انظر** : دليل الطالبين لكلام النحويين (١٤/١)، وهمع الهوامع في شرح جمع الجوامع (٥٤/١)، والنحو الوافي (١٥/١ـ١٦)، وشرح ألفية ابن مالك للشيخ ابن عثيمين (٥/٢).

(١٠) الصِّحاح (٢٠٢٣/٥) مادة "كلم" .

(١١) **انظر** : كتاب سيبويه (١٢/١) ، وتاج العروس (٣٧٠/٣٣) مادة "كلم" .

(١٢) **انظر** : القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً (٦٦/١) مادة "جمع" .

(١٣) **انظر** : التعريفات (٧٣) ، ومعجم اللّغة العربية المعاصرة (١٩٥٤/٣) ، مادة "جمع" .

(١٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٣٧١/١) ح(٥٢٣) تحقيق: عبد الباقي بهذا اللفظ ، **وبلفظ** : «بعثت بجوامع الكَلِم، ونصرت بالرعب، وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي». وأخرجه بنحوه البخاري في صحيحه (٢٥٧٣/٦) ح(٦٦١١) تحقيق : البُغا .

وطَهُورًا»[15]. وعن أبي بُرْدَه عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «أوتيت جوامع الكَلِم وفواتحه وخواتمه»[16]. وعن عمر بن الخطاب وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «أُعْطِيتُ جوامع الكَلِم ، واختُصِرَ لِيَ الحديثُ اختِصَارًا»[17].

وكذا بحثَ العلماءُ ـ رحمهم الله ـ في بيان معنى : "أوتيت جوامع الكلم"، وهل هو واقع في حديثه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحسب ، أم ذاك في القرآن الكريم أيضاً ؟.

قال ابن شِهَاب ـ رحمه الله ـ : «وبلغنى أن جوامع الكَلِم أنّ الله ـ تعالى ـ جَمَعَ له الأمور الكبيرة التي كانت تُكتَبُ فِي الكُتُبِ قبله في الأمر الواحد والأمرين،أو نحو ذلك»[18].

وقال الأزهري ـ رحمه الله ـ : «وهُوَ مِن قول النَّبِي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «أوتيتُ جوامعَ الكَلِم» يعنِي : القُرآن ، ومَا جَمَع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بلُطفهِ من المعَانِي الجَمَّة فِي الألفَاظ القليلة، كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف]»[19].

وقال الخطّابي ـ رحمه الله ـ : «معناه : إيجاز الكلام في إشباع للمعاني، يقول الكلمة القليلة الحروف، فتنتظم الكثير المعنى، وتتضمن أنواعاً من الأحكام . وفيه الحض على حسن التفَهُّم ، والحث على الاستنباط ؛ لاستخراج تلك المعاني، ونَبْش تلك الدَّفَائن المودعة فيها»[20].

وقال اللالكائي ـ رحمه الله ـ : «سياق ما روي من فضائل النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ التي خَصَّه الله بها من بين سائر الأنبياء ، فمنها : أُوتِيَ جوامع الكلم، وهي القرآن»[21].

وقال البَغَوي ـ رحمه الله ـ : «قيل : يعني: القرآن، جَمَعَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ بلطفه معاني كثيرة في ألفاظ يسيرة. وقيل : معناه : إيجاز الكلام في إشباع من المعنى، فالكلمة القليلة الحروف منها تتضمن كثيراً من المعاني، وأنواعاً من الأحكام»[22].

وقال ابن الأثير ـ رحمه الله ـ : «يَعني : القُرآنَ ، جمع الله بلطفه في الألفاظِ اليسيرة منه معاني كثيرة، واحدُها جَامعةٌ ، أي : كلمة جامعةٌ. ومنهُ الحديثُ في صفته ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «أنه كان يتكلَّم بجوامعِ الكلِم»[23]،أي: أنّه كان كثير المعاني قليل الألفاظ .

والحديث الآخر : «كان يستحبُّ الجوامع من الدُّعاء»[24] ، وهي الَّتي تجمعُ الأغرَاضَ الصَّالحة والمقاصد الصَّحيحة، أَو تجمع الثَّناء على الله ـ تعالى ـ، وآداب المسألة ... ، والحدِيثُ الآخرُ : «قال لهُ : أقرِئْني سورةً جامعةً، فأقرأه: "إذا زلزلت الأرضُ زلزالها"»[25]، أي : أنَّها تـجمعُ أسباب الخير؛ لقوله فيها : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة]»[26].

وقال ابن حجر ـ رحمه الله ـ : «وجوامع الكَلِم : القرآن، فإنه تقع فيه المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، وكذلك يقع في الأحاديث النبوية الكثير من ذلك»[27].

---

(15) أخرجه أحمد في المسند (٢٠٨/٧) ح(٧٣٩٧) . **قال الشيخ شاكر : «إسناده صحيح»** .

(16) **جزء من حديث طويل أخرجه** ابن أبي شيبة في مصنفه (٤٨٠/١١) ح(٣٢٣٩٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٨/٣) ح(١٣٦٨) . **وذكر الشيخ الألباني عنه أنه صحيح . انظر** : التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٣٧/٨) ح(٥٣٥٢) .

(17) أخرجه الدار قطني في سننه (٢٥٤/٥) ح(٤٢٧٥)، والبيقهي في شعب الإيمان (٣٨/٣) ح(١٣٦٧) . **وذكر الشيخ لألباني أنه ضعيف . انظر** : ضعيف الجامع الصغير وزيادته (١٣٥/١) ح(٩٤٩) .

(18) شعب الإيمان للبيهقي (٢٩٤/١) ضمن سياق ح(١٣٧)، **وهو نفس لفظ حديث البخاري الآنف** .

(19) تهذيب اللُّغة (٢٥٧/١) مادة "جمع".

(20) أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري (١٤٢٢/٢) .

(21) شرح أصول اعتقاد أهل السّنة والجماعة (٨٦٢/٤) .

(22) شرح السّنة (١٩٨/١٣) .

(23) سبق تخريجه آنفاً .

(24) أخرجه أبو داود في سننه من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ (٧٧/٢) ح(١٤٨٢) ، **وقال عنه الشيخ الألباني : «صحيح» . انظر** : صحيح الجامع وزيادته (٤٩٤٩) .

(25) **جزء من حديث أخرجه أبو داود في سننه** من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ (٥٤٦/٢) ح(١٣٩٩)، **وقال عنه المحقق الشيخ شعيب الأرناؤوط : «حسن»**، والنسائي في السنن الكبرى (٢٦٢/٧) ح(٧٩٧٣)، و(٢٦٤/٩) ح(١٠٤٨٤) ، والحاكم في المستدرك (٥٨٠/٢) ح(٤٩٦٤) .

(26) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢٩٥/١) مادة "جمع".

(27) فتح الباري (١٢٨/٦) .

وقال في موطن آخر : «وحاصله أنه ﷺ كان يتكلّم بالقول الموجز القليل اللَّفظ الكثير المعاني ... ، وجزم غير الزّهري بأنّ المراد بـ"جوامع الكلم" : القرآن ، بقرينة قوله : «بُعِثْتُ» ، والقرآن هو الغاية في إيجاز اللّفظ ، واتساع المعاني»[٢٨].

وقال الشَّيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ : «القاعدة الواحدة والسَّبعون: في اشتمال كثير من ألفاظ القرآن على جوامع المعاني : اعلم أنَّ ما مضى من القواعد السَّابقة هي المقصود بوضع هذا الكتاب، وهو بيان الطرق والمسالك والأصول التي يرجع إليها كثير من الآيات، وأنها وإن تنوعت ألفاظها، واختلفت أساليبها وتفاصيلها، فإنها ترجع إلى أصل واحد، وقاعدة كلية .

وأما نفس ألفاظ القرآن الحكيم فإن كثيراً منها من الألفاظ الجوامع، وهي من أعظم الأدلة على أنها تنزيل من حكيم حميد، وعلى صدق من أُعْطِيَ "جوامع الكَلِم" ، واختصر له الكلام اختصاراً»[٢٩].

وإذاً فلا عَجَب أن أتى طلب توافر البُلَغاء في حديثهم على "جوامع الكَلِم"، وأنهم يُمْدَحُون بذلك.

قال الأزهري ـ رحمه الله ـ : «ورُوِيَ عَن عمر بن عبد العزيز أنه قال: «عجبتُ لمن لاحَنَ الناسَ كيف لا يعرف جوامعَ الكَلِم» . يقُول : كيف لا يقتصر على الإيجاز ، ويترك الفضولَ من الكَلام»[٣٠].

ومن كلّ ما مضى يَظهر أنّ أساس هذا الدين القويم ــ كتاب الله ـ تعالى ـ، وسنة رسوله الأمين ﷺ، قد توافر في نُصُوصِهمَا من حيثُ الألفاظ والمباني والمعاني والدّلالات أنها "جوامعُ كَلِم"، وأنَّ مفهوم قوله ﷺ : «بُعِثتُ بجوامع الكَلِم» شاملٌ للمَصْدَرَين المُشَرّعَين[٣١]، وهما ينتظِمَان بين طيّاتهما من الأحكام والتشريعات ، والأوامر والنواهي، والقصص والمواعظ، وشتّى تَصَرُّفَات الكلام ما يخلب الألباب ويذهل العقول، وكلُّ ذلك أتى في قَدْر ما هو موجودٌ من الصَّحائف القليلة مقارنةً بحجم الكتب السَّابقة، والشّرائع الماضية، وصدق الله ـ تعالى ـ وهو يقول: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝ ﴾ [فصلت] ، ويقول : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾ [النجم] .

(٢٨) فتح الباري (١٣/٢٤٧) .

(٢٩) القواعد الحسان لتفسير القرآن (١٩٦) .

(٣٠) تهذيب اللُّغة (١/٢٥٧) مادة "جمع".

(٣١) **انظر** : القواعد والضّوابط المستخلصة من التحرير للندوي (١٢٤ـ١٢٥) .

المطلب الثاني : دخول المفاضلة بين آي القرآن الكريم .

وإذا ثبت ما تقدّم فلقائل أن يقول : وهل يلزم من وصف بعض الآيات بأنها من "جوامع الكلم" مزيةٌ وتفضيلٌ لها بعينها على بقية آي القرآن الكريم ؟.

والجواب : أنّ هذا الواردَ مبنيٌّ على مسألة مشهورة عند العلماء ـ رحمهم الله ـ ، تناولوها بالنقاش والتدليل والتعليل في كتب علوم القرآن ، وفي غيرها ، وهي مسألة دخول المفاضلة بين آيات وسور القرآن الكريم . وذهبوا فيها مذاهب[٣٢].

١. فقالت طائفة : لا فَضْلَ لبعض على بعض، لأن الكلَّ كلام الله ـ تعالى ـ .

وقد ذهب إلى هذا القول: الشَّيخ أبو الحسن الأشعري، والقاضي أبو بكر بن الطيب ، وأبو حاتم مُحَمَّد بن حبان البستي، وجماعة من الفقهاء. ورُوِيَ معناه عن مالك. قال يحيى بن يحيى : تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ، وكذلك كره مالك أن تُعَاد سورةٌ ، أو تردد دون غيرها. وذُكِر عن مالك في قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [البقرة:١٠٦] قال : محكمة مكان منسوخة[٣٣].

واحتج هؤلاء بأن قالوا : إنَّ الأفضل يُشْعِرُ بنقص المَفضُول، والذَّاتية في الكلِّ واحدة، وهي كلام الله، وكلام الله ـ تعالى ـ لا نقص فيه بحال .

قال ابن حبّان البستي ـ رحمه الله ـ : «ومعنى هذه اللَّفظة : «ما في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن»[٣٤] : أن الله ـ تعالى ـ لا يعطي لقارئ التوراة والإنجيل من الثواب مثل ما يعطي لقارئ أم القرآن، إذ الله بفضله فَضَّلَ هذه الأمة على غيرها من الأمم، وأعطاها من الفضل على قراءة كلامه أكثر مما أعطى غيرها من الفضل على قراءة كلامه، وهو فضل منه لهذه الأمة، وعدلٌ منه على غيرها... .

(٣٢) **الكلام الآتي بعدُ في هذه المسألة انظرُه في** : الجامع لأحكام القرآن (١/١٠٩ـ١١١) ، والبرهان في علوم القرآن للزَّركشي (١/٤٢٨ـ وما بعدها) ، في النوع (الثامن والعشرون)، والإتقان في علوم القرآن للسُّيوطي (٤/١٣٦ـ وما بعدها) في النوع (الثالث والسَّبعون)، وفتح الحي القيوم بشرح روضة الفهوم للسنباطي [ل٢٦/ب] مخطوط .

(٣٣) **انظر** : الجامع لأحكام القرآن (١/١٠٩) .

(٣٤) **جزء من حديث يرويه أبو هريرة عن أُبيّ بن كعب** ـ رضي الله عنهما ـ أخرجه أحمد في المسند (٣٥/١٨ـ١٩) ح(٢١٠٩٤) **قال الشيخ شعيب الأرنؤط** : «إسناده صحيح على شرط مسلم» . والترمذي في سننه (٥/٢٩٧) ح(٣١٢٥) ط . شاكر . **وقال الشيخ الألباني عنه** : «صحيح» . والنسائي في السنن الكبرى (١/٤٧٣) ح(٩٨٨) ، وابن حبان في صحيحه (٣/٥٣) ح(٧٧٥) .

قال ومعنى قوله : «أعظم سورة»[٣٥] أراد به في الأجر، لا أنَّ بعض القرآن أفضل من بعض»[٣٦].

وقال القاضي شمس الدّين الخوبي : «كلام الله أبلغ من كلام المخلوقين. وهل يجوز أن يقال بعض كلامه أبلغ من بعض؟.

جوّزه بعضهم ؛ لقصور نظرهم ، وينبغي أن يعلم أن معنى قول القائل: هذا الكلام أبلغ من هذا الكلام أنّ هذا في موضعه له حسن ولطف، وذاك في موضعه له حسن ولطف ، وهذا الحسن في موضعه أكمل من ذاك في موضعه، فإنَّ مَن قال إن:﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ أبلغ من ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ ﴾ يجعل المقابلة بين ذكر الله وذكر أبي لهب ، وبين التوحيد والدعاء على الكافرين .

وذلك غير صحيح بل ينبغي أن يقال : ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ ﴾ دعاءٌ عليه بالخسران ، فهل توجد عبارة للدعاء بالخسران أحسن من هذه ؟، وكذلك في ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ لا توجد عبارة تدل على الوحدانية أبلغ منها، فالعالِمُ إذا نظر إلى: ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ ﴾ في باب الدعاء والخسران ، ونظر إلى ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ في باب التوحيد لا يمكنه أن يقول أحدهما أبلغ من الآخر، وهذا القيد يغفل عنه بعض من لا يكون عنده علم البيان»[٣٧].

٢. وذهب آخرون إلى التفضيل ، منهم : إسحاق بن راهويه، وأبو بكر بن العربي، والغزالي، وابن الحصّار . وقال القرطبي : «إنه الحق»[٣٨]. ونقله عن جماعة من العلماء والمتكلمين . ومما استُدِلَّ به على ذلك ظواهر الأحاديث ، ومنها:

- حديث أبي سعيد بن المعلَّى ، وفيه : أن رسول الله ﷺ كان في المسجد وأنا أصلي، قال: فدعاني ، قال : فصليت ثم جئت ، فقال : «ما منعك أن تجيبني حين دعوتك؟، أما سمعت الله ـ تبارك وتعالى ـ يقـــول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ [الأنفال:٢٤] ؟،لأعلمنَّك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد»، قال : فمشيت مع النبيّ ﷺ حتى كدنا أن نبلغ باب المسجد ، فقلت : نسي فذكَّرتهُ ، فقلت : يا رسول الله، إنك قلت لي كذا وكذا ، فقال رسول الله ﷺ : «الحمد لله رب العالمين السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»[٣٩].
- وحديث أُبيّ بن كعب أنه قال : قال لي رسول الله ﷺ: «يا أُبَيَّ أيُّ آيةٍ معكَ في كتابِ اللهِ أعظم؟». قال: فقلت : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البقرة:٢٥٥] ، قال: فضرب في صدري ، وقال : «ليَهْنِكَ العلم أبا المنذر»[٤٠].
- وما أخرجه الحاكم في مستدركه بسند صحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ : «سيدة آي القرآن آية الكرسي»[٤١].
- وما خرّجه الترمذي في سننه غريباً عنه ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً : «لكلّ شيءٍ سَنامٌ، وإنَّ سَنام القرآن سورة البقرة ؛ فيها آية الكرسي»[٤٢].

قال ابن الحصّار : «عَجَبي ممن يذكر الاختلاف مع هذه النصوص»[٤٣].

ثم اختلفوا في وجه الأفضلية عندئذٍ : فقال بعضهم : الفضل راجع إلى عِظَم الأجر ، ومضاعفة الثواب بحسب انفعالات النفس وخشيتها وتدبرها وتفكّرها عند ورود أوصاف العُلا .

وقيل : بل يرجع لذات اللفظ، وأن ما تضمّنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ

---

(٣٥) **جزء من حديث أبي سعيد بن المعلَّى** ـ رضي الله عنه ـ في فضل سورة الفاتحة أخرجه البخاري في صحيحه (١٦٢٣/٤) ح(٤٢٠٤)، و(١٧٠٤/٤) ح(٤٣٧٠)، و(١٧٣٨/٤) ح(٤٤٢٦)، و(١٩١٣/٤) ح(٤٧٢٠) تحقيق : البُغا .

(٣٦) صحيح ابن حبان (٥٤/٣ ، و٧٧) عند إيراده الحديث رقم (٧٧٥)، و(٧٧٨). .

(٣٧) البرهان (٤٤٠/١) .

(٣٨) الجامع لأحكام القرآن (١١٠/١) .

(٣٩) **تقدّم تخريجه آنفاً .**

(٤٠) أخرجه مسلم في صحيحه (٥٥٦/١) ح(٨١١) تحقيق : عبد الباقي .

(٤١) مستدرك الحاكم (٢٨٦/٢) ح(٣٠٣٠). وقال الشيخ الألباني : «ضعيف». **انظر:** ضعيف الجامع الصغير وزيادته (٦٨١/١) ح(٤٧٢٥).

(٤٢) (١٥٧/٥) ح(٢٨٧٨) تحقيق : شاكر . **وقال الشيخ الألباني** : «ضعيف» .

(٤٣) الجامع لأحكام القرآن (١١٠/١) .

﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة]،وآية الكرسي، وآخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص من الدّلالات

على وحدانيته وصفاته ليس موجوداً مثلا في : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾ [المسد:١] ، وما كان مثلها ، فالتفضيل إنما هو بالمعاني العجيبة وكثرتها لا من حيث الصِّفَة .

وقال الحليمي : «قد ذكرنا أخباراً تدل على جواز المفاضلة بين السور والآيات ، وقال الله ـ تعالى ـ : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾، ومعنى ذلك يرجع إلى أشياء :

أحدها: أن تكون آيتا عمل ثابتتان في التلاوة إلا أن إحداهما منسوخة والأخرى ناسخة، فنقول : إنَّ الناسخ خير، أي : أنّ العمل بها أولى بالناس، وأعود عليهم، وعلى هذا فيُقَال : آيات الأمر والنهي ، والوعد والوعيد خيرٌ من آيات القصص؛ لأنّ القصص إنما أريد بها تأكيد الأمر والنهي والتبشير ، ولا غِنَى بالناس عن هذه الأمور ، وقد يستغنون عن القصص ، فكل ما هو أعودُ عليهم ، وأنفع لهم مما يجري مجرى الأصول خير لهم مما يحصل تبعا لِمَا لا بد منه . والثاني : أن يقال : إنّ الآيات التي تشتمل على تعديد أسماء الله ـ تعالى ـ ، وبيان صفاته، والدّلالة على عظمته وقدسيته أفضل أو خير، بمعنى: أنَّ مخبراتها أسنى، وأجلّ قدراً. والثالث : أن يقال : سورةٌ خيرٌ من سورة ،أو آيةٌ خيرٌ من آية ، بمعنى : أنَّ القارئ يتعجَّل بقراءتها فائدة سوى الثواب الآجل، ويتأدَّى منه بتلاوتها عبادة ، كقراءة آية الكرسي ، وسورة الإخلاص ، والمعوّذتين ، فإن قارئها يتعجل بقراءتها الاحتراز مما يخشى، والاعتصام بالله ـ جل ثناؤه ـ ، ويتأدَّى بتلاوتها منه لله ـ تعالى ـ عبادة ؛ لِمَا فيها من ذكر اسم الله ـ تعالى ـ جَدُّه بالصِّفات العُلا على سبيل الاعتقاد لها، وسكون النفس إلى فضل الذكر وبركته، فأما آيات الحكم فلا يقع بنفس تلاوتها إقامة حكم، وإنما يقع بها علم . وقد يقال : إنّ سورةً أفضل من سورة ؛ لأن الله ـ تعالى ـ اعتدّ قراءتها كقراءة أضعافها مما سواها ، وأوجب بها من الثواب ما لم يوجب بغيرها ، وإن كان المعنى الذي لأجله بلغ بها هذا المقدار لا يظهر لنا ، كما يقال : إنّ قوماً أفضل من قوم ، وشهراً أفضل من شهر، بمعنى : أنّ العبادة فيه تَفْضُلُ على العبادة في غيره، والذنب يكون أعظم من الذنب منه في غيره، وكما يقال : إنّ الحرم أفضل من الحل ؛ لأنه يتأدّى فيه من المناسك ما لا يتأدَّى في غيره، والصَّلاة فيه تكون كصلاةٍ مُضَاعَفَة مما تقام في غيره»[٤٤].

٣. وذهب ابن عبد البر إلى أنَّ : السُّكوت في هذه المسألة أفضل من الكلام فيها وأسلم . ثم أسند إلى إسحاق بن منصور،قلت لأحمد بن حنبل قوله ﷺ:«قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»[٤٥] ما وجهه؟. فلم يقل لي فيها على أمر . وقال لي إسحاق بن راهويه : معناه أن الله لمَّا فضَّل كلامه على سائر الكلام جعل لبعضه أيضاً فضلا في الثواب لمن قرأه؛تحريضاً على تعليمه لا أنَّ مَن قرأ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ أحد ثلاث مرات كان كمن قرأ القرآن جميعه. هذا لا يستقيم، ولو قرأها مائتي مرة. قال ابن عبد البر: «فهذان إمامان بالسنة ما قَامَا ولا قَعَدَا في هذه المسألة»[٤٦].

وبعد: فإنّ القول بوقوع المفاضلة بين آيات القرآن هو الأولى؛ لظهور أدلته، وصحتها، وصراحتها. وعلى ذلك فالآيات التي يصدق عليها أنها من "جوامع الكَلِم" لن تُعْدم حظّها من توافر دواعي التفضيل، وبأيّ اعتبار من اعتبارات التقديم ، إذا قُورنَت بغيرها مِن الآيات القرآنية الأُخرى التي لم تتوافر فيها الدَّوَاعي، والبحث ذاكرٌ ـ بحول الله تعالى ـ هاتيك الآيات بعينها، ومن ثَمَّ سبب نعتها بـ"جوامع الكَلِم".

المطلب الثالث : وجه وصف بعض الآيات بأنها من "جوامع الكَلِم" .

كان للعرب الذين نزل القرآن بلسانهم تصرّفات وأحوال ومقامات في كلامهم ، وهي التي أبلغتهم المنازل العالية في الإجادة ، والمراتب السّامية في الإفادة في هذا الباب .

والقرآن في نزوله على تلك التصرفات لقد فاقها شَأْوَاً وإبداعاً، وبسلوكه تلك المناحي والطرائق لقد بزَّها جمالاً، وجلالاً.

هذا ولقد أدرك العرب الأوائل ـ مؤمنهم وكافرهم ـ مكانة هذا القرآن ، وهم أهلٌ لإدراك فضل هذا الذكر الحكيم؛ ذاك أنه «لن يعرف فضل القرآن إلا من كثر نظرُهُ، واتسع علمُهُ ، وفَهِمَ مذاهب العرب، وافتنانها في الأساليب ، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللُّغات ، فإنه ليس في جميع الأمم أُمّة أوتيت من العارضة، والبيان، واتساع المجال، ما أُوتِيَتْهُ العرب خِصِّيصَى من الله ؛ لِمَا أرهصه في الرَّسول ﷺ، وأراده من أقامة الدليل على نبوّته بالكتاب ، فجعله عَلَمَه ، كما جعل عَلَمَ كلّ نبيٍّ من المرسلين من أشبه الأمور بما في زمانه المبعوث فيه»[٤٧].

والقرآن الكريم حاز الغاية في الفصاحة والبيان ، وتمكّن من الرُّتبة العليا في الإعجاز ، ومن ثَمَّ فإنَّ «تخيّر الألفاظ ، وإبدال بعضها من بعض يوجب التئام الكلام، وهو من أحسن نعوته ، وأزين صفاته ، فإن أمكن مع ذلك منظوماً من حروف سهلة المخارج كان أحسن له

---

(٤٤) البرهان (١/٤٤١) .

(٤٥) **هذا جزء من حديث أبي الدرداء** ﷺ أخرجه مسلم في صحيحه (١/٥٥٦) ح(٨١١) تحقيق : عبد الباقي .

(٤٦) الاستذكار (٢/٥١٢ـ٥١٣) . **وانظر أيضاً** : البرهان (١/٤٤٦) ، والإتقان (٤/١٤٦) .

(٤٧) تأويل مشكل القرآن (١٢) .

وأدعى للقلوب إليه، وإن اتفق له أن يكون موقعه في الإطناب والإيجاز أليق بموقعه وأحقّ بالمقام والحال كان جامعاً للحسن بارعاً في الفضل، وإن بلغ مع ذلك أن تكون موارده تُنبيك عن مصادره، وأوّله يكشف قناع آخره كان قد جمع نهاية الحسن، وبلغ أعلى مراتب التمام»[٤٨]. وإذا كان هذا يحمل في كلام الناس ، ويُعلى به شأن خطابهم، فهو ـ لعمرو الله ـ في كتاب الله أجمل وأحرى .

وتلك الآيات التي البحث بصدد النظر فيها كونها نُعِتَت بـ"جوامع الكلم" لا ريبَ أنها حَوَت بعض المظاهر مما جَعَلَهَا تتميَّزُ عن غيرها بهذا الاعتبار . ولعلّ أظهر شيءٍ من ذلك هو الجانب البلاغي المتوافر فيها ، وقد قَدَّمَ البحث أن "جوامع الكَلِم" آياتٌ قلَّتْ ألفاظها ، وكَثُرَتْ معانيها . وهي بهذا الوصف يدخلها نوعٌ من فنون علم البلاغة ، ألا وهو الإيجاز .

وهو عند صاحب "المثل السَّائر" : «دلالة اللَّفظ على المعنى من غير زيادةٍ عليه»[٤٩].

وقال الرُّماني ـ رحمه الله ـ : «الإيجاز : تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى ، وإذا كان المعنى يمكن أن يُعبّر عنه بألفاظ كثيرة ، ويمكن ان يُعبّر عنه بألفاظ قليلة، فالألفاظ القليلة إيجاز ، والإيجاز على وجهين : حذفٌ ، وقَصْرٌ . فالحذف : إسقاط كلمة؛ للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال، أو فحوى الكلام . والقَصْر : بُنيَةُ الكلام على تقليل اللّفظ، وتكثير المعنى من غير حذف .... .

وأمّا الإيجاز بالقصر دون الحذف فهو أغمض من الحذف ، وإن كان الحذف غامضاً؛ للحاجة إلى العلم بالمواضع التي يصلح فيها من المواضع التي لا يصلح . فمن ذلك : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة:١٧٩]، ومنه : ﴿ تَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [المنافقون:٤] ... . وهذا الضّرب من الإيجاز في القرآن كثير»[٥٠].

وقال الطيبي ـ رحمه الله ـ : «الإيجاز الخالي من الحذف ثلاثة أقسام : أحدها : إيجاز القصر، وهو أن يُقصر اللَّفظ على معناه، كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣١ ﴾ [النمل]، جَمع في أحرفٍ العنوانَ ، والكتابَ ، والحاجةَ. وقيل في وصف بليغ: كانت ألفاظه قوالبَ معناه .

الثاني : إيجاز التقدير ، وهو أن يقدِّر معنى زائداً على المنطوق، ويُسَمَّى بالتضييق أيضاً .... ؛ لأنه نقص من الكلام ما صار لفظه أضيق من قدر معناه، نحو: ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ ﴾ [البقرة:٢٧٥] ، أي : خطاياه غُفرت، فهي له لا عليه. ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة] ، أي : الضَّالين الصَّائرين بعد الضَّلال إلى التقوى .

الثالث : الإيجاز الجامع ، وهو أن يحتويَ اللفظُ على معان متعددة، نحو : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾ [النحل:٩٠] . فإن العدل هو الصِّراط المستقيم التوسطَ بين طرفي الإفراط والتفريط المؤدي به إلى جميع الواجبات في الاعتقاد، والأخلاق ، والعبودية. والإحسان هو الإخلاص في واجبات العبودية ؛ لتفسيره في الحديث بقوله : «أنْ تَعْبدَ اللهَ كأنكَ تراه»[٥١]، أي : تعبده مخلصاً مخلصاً في نيتك، وواقفاً في الخضوع، آخذاً أهْبَة الحذر إلى ما لا يُحصى.﴿ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ هو الزّيادة على الواجب من النوافل، هذا في الأوامر. وأما النواهي فـ "بالفحشاء" الإشارة إلى القوة الشَّهوانية، وبـ"المنكر" إلى الإفراط الحاصل من آثار الغضبية، أو كل محرم شرعاً، وبـ"البغي" إلى الاستعلاء الفائض من الوهمية .

ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ [الأعراف:١٩٩] . فإنها جامعة لمكارم الأخلاق؛ لأن في أخذ العفو التساهل والتسامح في الحقوق، واللّين والرّفق في الدّعاء إلى الدّين. وفي الأمر بالعُرف كفٌّ الأذى، وغضَّ البصر ، وما شاكلها من المحرمات . وفي الإعراض الصّبر ، والحلم ، والتُّؤدة ... »[٥٢].

وقال السُّيوطي ـ رحمه الله ـ : «الإيجاز قسمان : إيجاز قَصْر، وإيجاز حذف . فالأول : هو الوجيز بلفظه . قال الشيخ بهاء الدين ـ يعني السّبكي ـ : الكلام القليل إن كان بعضاً من كلام أطول منه فهو إيجاز حذف، وإن كان كلاماً يعطي معنى أطول منه فهو إيجاز قصر. وقال بعضهم : إيجاز القصر هو تكثير المعنى بتقليل اللَّفظ . وقال آخر: هو أن يكون اللَّفظ بالنسبة إلى المعنى أقل من القدر المعهود عادة . وسبب حسنه أنه يدل على التمكن في الفصاحة، ولهذا قال ﷺ : «أوتيتُ جوامعَ الكلم»[٥٣].

---

(٤٨) كتاب الصِّناعتين الكتابة والشعر (١٥٩) .

(٤٩) المثل السَّائر في أدب الكاتب والشاعر (٢/٢٨١) .

(٥٠) النكت في إعجاز القرآن (٧٦ـ٧٧) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن . **وانظر أيضاً** : كتاب الصِّنَاعتين (١٩٥ـ١٩٧).

(٥١) **هذا جزء من حديث** جبريل الطويل ، رواه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وقد أخرجه مسلم في صحيحه (١/٣٦) ح(٨) تحقيق : عبد الباقي .

(٥٢) الإتقان (٣/٨٢٧ـ٨٢٨) .

(٥٣) الإتقان (٣/٨٢٦ـ٨٢٧) . **وقال عنه صاحب الطراز** (٣/١٧٦) : «**وهو فى مصطلح أهل هذه الصناعة** عبارة عن تأدية المقصود من الكلام **بأقل عبارة متعارف عليها**، ثم

والإيجاز بابٌ في البلاغة بديع، له أهميته، وجماله. وقد عَرَفَ البلاغيون مقامه، حتى طارت عنهم المقولة الشهيرة: «البلاغة الإيجاز»[٥٤]. ومن ثَمَّ تسابقوا لبيان حاله، وتعديد مظاهره، وتجلية مواطنه سواءً في كلام العرب الأفْحَاح، أو في كلام الله ـ ﷻ ـ،أو في كلام رسوله ـ ﷺ ـ،ودبّجوا به المؤلفات قديماً وحديثاً.

وقال الرُّمَّاني ـ رحمه الله ـ : «وإذا عرفت الإيجاز ومراتبه ، وتأمّلت ما جاء في القرآن منه ، عرفت فضيلته على سائر الكلام ، وهو علوّه على غيره من سائر الكلام ، وعلوّه على غيره من أنواع البيان ،والإيجاز تهذيب الكلام بما يحسن به البيان، والإيجاز تصفية الألفاظ من الكدر، وتخليصها من الدّرَن، والإيجاز البيان عن المعنى بأقلّ ما يمكن من الألفاظ، والإيجاز إظهار المعنى الكثير باللّفظ اليسير »[٥٥].

وبعد سَوْق أقوال العلماء ـ رحمهم الله ـ في بيان الإيجاز، وأقسامه، وأمثلته .

فإنّ العلامة مُحَمَّد الطَّاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ قد لَحَظَ هذا الوجه البلاغيَّ عند سوقه لتلك الآيات الموصوفة لديه أنها من "جوامع الكَلِم" . فهو يقول مثلاً : «... ، فهذه عدّة معان يفيدها لفظ الآية ، وكلّها مقصودةٌ ، فالآية من "جوامع الكَلِم"»[٥٦]. ويقول : «موقع هذه الآية ومعناها صالحٌ لعدّة وجوه من الموعظة، وهي من جوامع كَلِم القرآن»[٥٧]. ويقول : «... ، وهذا التركيب من "جوامع الكَلِم"؛ لدلالته على ما لا يُحصى من المضار في الكفر على الكافر ، وأنه لا يضر غيره، مع تمام الإيجاز»[٥٨]. ويقول : «... ، وهذه الجملة بلغت نهاية الإيجاز ، وأرفع الجزالة بأسلوب غليظ دالٍّ على السّخط بالغ حد المذمّة ، جامعٌ للملامة، ولم يُسمع مثلها، فهي من "جوامع الكَلِم" القرآنية»[٥٩]. ويقول : «وهذه من "جوامع الكَلِم" ؛ لأنها يندرج تحتها كلّ ما يرغب فيه الرّاغبون»[٦٠]. ويقول : «وهذه الآية من "جوامع الكَلِم" القرآنية ؛ لِمَا احتوت عليه من كثرة المعاني»[٦١].

المطلب الرّابع : العلاقة بين "جَوامع الكَلِم" و"القواعد الفقهية" .

لكي تُدرَك العلاقة بين "جوامع الكَلِم" و"القواعد الفقهية" فلا بُدّ قبلُ من تعريف هذه الأخيرة ، ومن ثَمَّ السّعي في إيجاد وجه الاتفاق والاختلاف بين المصطلحين الآنفين . ويمكن تعريف "القواعد الفقهية" اصطلاحاً بأنها : «أحكام شرعية عملية كلّيّة تنطبق على مسائل من بابين فأكثر»[٦٢]. وقد تقدّم في البحث أنَّ "جوامع الكَلِم": كلامٌ قلّت ألفاظُه، وكَثُرت معانيه . وإذاً فثمّة وجه اشتراك بينها وبين "القواعد الفقهية"، وذلك في تحقّق صفة العموم والوجازة في كلٍّ منهما، فقد وُصفت "جوامع الكلم" بأنها تلك الكلمات التي تتصف بالعموم في معانيها ومضامينها بحيث تشتمل على معان متعددة واسعة في آنٍ واحد ، وبأقل الألفاظ . وهذا ما يظهر أيضاً جلياً متحققاً في "القواعد الفقهية"؛ فإنها أحكام كلية عامة، بألفاظ قليلة جامعة[٦٣].

غير أنّ "جوامع الكَلِم" ـ سواء كانت من القرآن الكريم أو السّنة النبوية ـ ليست منحصرةً كلّها في نوع "القواعد الفقهية"،بل هي أنواع كما يلي[٦٤]:

أولاً: "جوامع الكلم" التي جرت نفس نصوصها مجرى القواعد .

أ/أمثلة من "جوامع الكلم" التي جرت نصوصُها مجرى القواعد من الآيات القرآنية :

فمن هذ النوع قوله ـ تعالى ـ : ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ ﴾ [التوبة:٩١][٦٥]، ولفظ هذه الآية يُعتبر من "الألفاظ الجوامع"[٦٦]، ويُفهم من السّياق الذي وردت فيه هذه الجملة القرآنية أنها قاعدة جامعة مستقلة، وما سبقها من الحكم بالنسبة لأهل الأعذار الصَّحيحة من ضعف أبدان، أو مرض ، أو زَمَانة، أو عدم نفقة مندرج تحت هذا الأصل العام ، فإنّ القرآن الكريم لم يقل : "ما

إنه يأتي على وجهين، أحدهما القصر، وهو الإتيان بلفظ قليل تحته معان جمّة» .

(٥٤) **قالها أكثم بن صيفيّ لكسرى في خطبة شهيرة لَمَّا وفد عليه مع جملة من وجوه العرب . انظر** : العقد الفريد (١/٢٨٠ـ٢٨١)، والتذكرة الحمدونية (٧/٤١٠)، والصّناعتين (١/١٩٠)، وجمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (١/٥٦) .

(٥٥) النكت في إعجاز القرآن (٨٠) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن .

(٥٦) التحرير والتنوير (٢٠/١٦١) .

(٥٧) التحرير والتنوير (٢١/١٠٩) .

(٥٨) التحرير والتنوير (٢١/١١٦) .

(٥٩) التحرير والتنوير (٣٠/١٢١) .

(٦٠) التحرير والتنوير (٣٠/٣٩٢) .

(٦١) التحرير والتنوير (٢١/٤١٧) .

(٦٢) معلمة زايد (١/٢٣٥) .

(٦٣) **انظر** : معلمة زايد (١/٢٣٥) .

(٦٤) **انظر** : معلمة زايد (١/٢٣٥ـ٢٣٨) .

(٦٥) **انظر** : القواعد والضّوابط المستخلصة من التحرير للندوي (١٢٦) .

(٦٦) **انظر** : القواعد الحسان في تفسير القرآن لابن سعدي (١٩٧) .

عليهم من سبيل" بل عمَّمَ الحكم فرفع الحرج ، ونفى الإثم عن سائر المحسنين[٦٧] .

قال ابن العربي ـ رحمه الله ـ : «هذا عمومٌ ممهّد في الشّريعة، أصل في رفع العقاب والعتاب عن كلّ محسن»[٦٨] . ومن أمثلة هذ النوع أيضاً قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فِيۡ ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ [البقرة:١٧٩] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : « وقوله : ﴿ فِيۡ ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ من جوامع الكَلِم»[٦٩] .

وأصل الآية هكذا : ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾. وقد أوردها بعض العلماء بالاقتصار على النّظم المذكور[٧٠] ـ أعني : ﴿ فِيۡ ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ ـ ، وبهذه تكون هذه الجملة القرآنية

الكريمة قاعدة ؛ لنظمها ولفظها. وعبّر الجُويني عن هذه الآية بأنها "قاعدة"، فقال ـ رحمه الله ـ :

«واتفق المسلمون على هذه القاعدة ، ولم ينكرها من طبقاتهم مُنكِر»[٧١] .

ب/أمثلة من "جوامع الكَلِم" التي جرت نصوصُها مجرى القواعد من الأحاديث النبوية : فمن ذلك قوله ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكلّ امرئٍ ما نوى»[٧٢] .

وهذا الحديث من «جوامع الأحاديث للأحكام الشَّرعية»[٧٣] .

قال ابن رجب الحنبلي ـ رحمه الله ـ : «وهاتان كلمتان جامعتان ، وقاعدتان كلّيتان لا يخرج عنهما شيءٌ»[٧٤] . ومن ذلك أيضاً قوله ﷺ : «الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهة»[٧٥] .

قال ابن دقيق العيد ـ رحمه الله ـ:«هذا الحديث أصلٌ عظيمٌ من أصول الشّريعة»[٧٦] . وذَكَر الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ أنَّ أصول الإسلام تدور على ثلاثة أحاديث،ومنها هذا الحديث[٧٧] . وهذا يدلّ على أنه أحد القواعد التي تُردّ إليها جميع الأحكام عنده . تلك نماذج من النصوص القرآنية والحديثية ـ وغيرها كثير ـ التي تندرج نصوصها نفسها في زمرة "القواعد الفقهية" .

ثانياً: "جوامع الكَلِم" التي تُعَدَّ مصادر لإنشاء القواعد الفقهية لدى الفقهاء .

مثال ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾ [البقرة:٢٨٢] .

فقد انتظمت هذه الجملة الشرائط الثلاثة للشّهادة ، وهي : العدالة، ونفي التهمة ـ وإن كان عدلاً ـ، والتيقّظ والحفظ وقلّة الغفلة؛ لأنّ الشّاهد لا يكون مرضياً عند المؤمنين وقضاتهم حتى يكون عدلاً، متيقّظاً، غير متهم في شهادته بسبب من الأسباب الموجبة للتهمة .

قال الجَصَّاص ـ رحمه الله ـ بعد أنّ فصّل الكلام على ما تضمّنته هذه الجملة الكريمة من الشّرائط الثلاثة للشهادة ، وما يتفرّع عليها من أحكام فقهية : «فهذه الأمور الثلاثة التي ذكرناها : من العدالة ، ونفي التهمة، وقلّة الغفلة هي من شرائط الشّهادات، وقد انتظمها قوله ـ تعالى ـ : ﴿ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾. فانظر إلى كثرة هذه المعاني، والفوائد، والدّلالات على الأحكام التي في ضمن قوله ـ تعالى ـ : ﴿ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾ مع قلّة حروفه ، وبلاغة لفظه ، ووجازته ، واختصاره ، وظهور فوائدة»[٧٨] . وإذاً فهذه الجملة الكريمة من جوامع الكَلِم القرآنية قد استند إليها الفقهاء في صياغة قواعد تقرّر مبدأ الثقة والاعتبار في قبول الشّهادة وردّها .

ثالثاً: "جوامع الكَلِم" المتعلقة بأحكام شرعية أخرى غير الأحكام الفقهية، كالعقيدة، والتربية، والأخلاق :

---

(٦٧) **انظر** : القواعد والضّوابط المستخلصة من التحرير للندوي (١٢٦) .

(٦٨) أحكام القرآن (٩٩٥/٢) .

(٦٩) التحرير والتنوير (١٤٥/٢) . **وسيأتي الحديث عن هذه الآية بنوع توسّع لاحقاً .**

(٧٠) **انظر** : الدر المنثور (٤٢١/١)، ونظم الدرر للبقاعي (٣٧٩/١٧) .

(٧١) البرهان في أصول الفقه للجويني (٢٠٧/٢) .

(٧٢) **متفق عليه من حديث عمر** ـ ﷺ : أخرجه البخاري في صحيحه **في مواطن منها** : (٣/١) ح(١)، و(٣٠/١) ح(٥٤)، و(٨٩٤/٢) ح(٢٣٩٢)، و(١٩٥١/٥) ح(٤٧٨٣)، و(٢٤٦١/٦) ح(٦٣١١)، و(٢٥٥١/٦) ح(٦٥٥٣) تحقيق: البُغا. وأخرجه مسلم في صحيحه (١٢٧٤/٣) ح(١٦٥٣)، و(١٥١٤/٣ـ ١٥١٥) ح(١٩٠٧) تحقيق : عبد الباقي .

(٧٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢٦٦/٢) .

(٧٤) جامع العلوم والحكم (٧٢/١) .

(٧٥) **متفق عليه من حديث النعمان بن بشر** ـ ﷺ : أخرجه البخاري في صحيحه (٢٨/١) ح(٥٢)، و(٧٢٣/٢) ح(١٩٤٦)، تحقيق: البُغا. وأخرجه مسلم في صحيحه (١٢٢١/٣) ح(١٥٩٩) ، تحقيق : عبد الباقي .

(٧٦) شرح الأربعين النووية لابن دقيق (٤٣/١) .

(٧٧) **انظر** : جامع العلوم والحكم (٧١/١) .

(٧٨) أحكام القرآن للجصاص (٢٤٤/٢) . **وانظر** : القواعد والضوابط المستخلصة من التحرير (١٢٨) .

أ/فمن أمثلة ذلك من القرآن قوله ـ تعالى ـ: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾[الأعراف].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ : «هذه الآية من ثلاث كلمات تضمّنت قواعد الشّريعة في المأمورات والمنهيات»[٧٩]. وقال جعفر الصّادق ـ رحمه الله ـ : «أمر الله نبيّه بمكارم الأخلاق في هذه الآية ... »[٨٠].

ب/ومن أمثلة ما جاء من ذلك في السنة النبوية قوله ـ ﷺ ـ : «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده ، وولده ، والنّاس أجمعين»[٨١].

قال أبو الزّناد ـ رحمه الله ـ : «هذا من جوامع الكلم الذي أوتيه ـ ﷺ ـ ؛ لأنه قد جَمَع في هذه الألفاظ اليسيرة معاني كثيرة؛ لأنّ أقسام المحبة ثلاثة : محبة إجلال وعَظَمَةٍ، كمحبة الوالد، ومحبة شفقة ورحمة، كمحبة الولد، ومحبة استحسان ومشاكلة ، كمحبة سائر النّاس ، فحصر صنوف المحبة»[٨٢].

وبعدُ: فبالنظر فيما سبق من أنواع "جوامع الكَلِم" من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية ، يمكن تمييزها عن "القواعد الفقهية" بالآتي[٨٣]:

- إنَّ "جوامع الكَلِم" التي جرت نصوصها مجرى "القواعد الفقهية" هي نوع من أنواع "القواعد الفقهية" ، فالعلاقة بين أمثال هذه الجوامع من الكَلِم وبين "القواعد الفقهية" علاقة جزء من كلٍّ ؛ إذ هي قِسم أساسي من أقسام "القواعد الفقهية" .
- نصوص "جوامع الكَلِم" ـ سيان كانت قواعد أم ليست قواعد ـ كلّها مستمدة من الكتاب والسنة، فهي أدلة تشريعية يُستند إليها لإثبات الأحكام ، وبناءً على هذا فإنّ ما يُعدّ منها من قبيل القواعد تكون لها ميزة على القواعد الأخرى بأنها "قواعد وأدلة في آن واحد" ، بخلاف "القواعد الفقهية" الأخرى فهي نفسها بحاجة إلى أدلة قبل أن يُستَدَلّ بها ، وبهذا تكون لأمثال هذه النصوص من "جوامع الكَلِم" ميزة على بقية "القواعد الفقهية" الأخرى من جهة "الدّليلية والحُجيّة .

(٧٩) الجامع لأحكام القرآن (٣٤٤/٧) . **وانظر** : القواعد والضوابط المستخلصة من التحرير (١٢٦) .

(٨٠) الجامع لأحكام القرآن (٣٤٥/٧) .

(٨١) **متفق عليه من حديث أنس** ـ ﷺ ـ : أخرجه البخاري في صحيحه (١٤/١) ح(١٥)، تحقيق: البُغا. وأخرجه مسلم في صحيحه (٦٧/٣) ح(٤٤) ، تحقيق: عبد الباقي .

(٨٢) شرح ابن بطال على صحيح البخاري (٦٦/١) .

(٨٣) **انظر** : معلمة زايد (٢٣٩/١ـ٢٤٠) .

- إنّ "جوامع الكَلِم" ليست قاصرة على نوع "القواعد الفقهية" فحسب، بل فيها ما ينسحب مفهومه على قواعد شرعية أُخرى غير "القواعد الفقهية" .
- هناك نصوص من الكتاب والسنة وُصِفَت بأنها من "جوامع الكَلِم" ولا صلة لها بموضوع "القواعد الفقهية" ؛ لكونها لا تتعلّق بالأحكام الشّرعية العملية التي هي موضوع "القواعد الفقهية" .

أ/فمن أمثلة هذا النوع من كتاب الله قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ ﴾[طه]. فقوله:﴿ مَا غَشِيَهُمۡ ﴾. أتى في الكشّاف: «هو من باب الاختصار، ومن "جوامع الكَلِم" التي تستقلّ مع قلّتها بالمعاني الكثيرة، أي : غشيهم ما لا يُعلم كنهَه إلا الله»[٨٤] .

ب/ ومن أمثلة ذلك من السنة النبوية ما جاء في حديث التشهد في الصّلاة أنّ الصّحابة ـ ﷺ ـ كانوا يقولون في التشهد : «السّلام على جبريل، وميكائل، السّلام على فلان وفلان» ، فأمرهم النبيُّ ـ ﷺ ـ أن يقولوا بدلاً من ذلك : «السّلام علينا وعلى عباد الله الصّالحين»[٨٥]. قال : «فإنكم إذا قلتموها أصابت كلّ عبد لله صالح في السّماء والأرض»[٨٦] . فقوله ـ ﷺ ـ : «السّلام علينا وعلى عباد الله الصّالحين»، هو لفظٌ «يشمل الجميع مع غير الملائكة من النبيين ، والمرسلين ، والصديقين ، وغيرهم بغير مشقة»[٨٧]. وهذا من "جوامع الكَلِم" التي أوتيها ـ ﷺ ـ[٨٨] .

(٨٤) الكشاف (٧٨/٣) . **وانظر أيضاً** : التحرير والتنوير (١٥٧/١٦) .

(٨٥) **أخرجه البخاري في صحيحه في عدة مواطن عن عبد الله بن مسعود** ـ ﷺ ـ (٢٨٦/١) ح(٧٩٧)، و(٢٨٧/١) ح(٨٠٠) ، و(٤٠٣/١) ح(١١٤٤)، و(٢٣٠١/٥) ح(٥٨٧٦) ، و(٢٣١١/٥) ح(٥٩١٠)، و(٢٦٨٨/٦) ح(٦٩٤٦)، تحقيق: البُغا .

(٨٦) **أخرجه البخاري في صحيحه في عدة مواطن عن عبد الله بن مسعود** ـ ﷺ ـ (٢٨٦/١) ح(٧٩٧)، و(٤٠٣/١) ح(١١٤٤) ، و(٢٣٠١/٥) ح(٥٨٧٦)، و(٢٣٣١/٥) ح(٥٩٦٩)، تحقيق: البُغا.

(٨٧) فتح الباري لابن حجر (٣١٥/٢) .

(٨٨) **انظر** : فتح الباري لابن رجب الحنبلي (٣٣٠/٧) ، وفتح الباري لا حجر (٣١٥/٢) .

فهذان النصّان وُصِفا بكونهما من "جوامع الكَلِم" ، ولكن من البَيِّن أنه لا صلة لهما بـ"القواعد الفقهية" ؛ لعدم تعلّقهما بالأحكام الشّرعية، بل هما أقرب ما يكونان من باب التمثيل للإعجاز البياني في أساليب القرآن الكريم والسنة النبوية[٨٩] .

المبحث الثاني: الآيات المنعوتة بـ"جوامع الكَلِم" عند العلامة ابن عاشور في الثلث الأول من القرآن .

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول:

آيةُ سورة البقرة [٢٨٦]، وفيها: الدُّعاء المتضمن لخصائص الشَّريعة الإسلامية:

ذهب العلاَّمة مُحَمَّد الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ إلى القول عن آية سورة البقرة : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ إنها من "جوامع الكَلِم" ، حيث استعرض في سياق حديثه عن محتويات سورة البقرة جملةً من آيات السّورة الكريمة ، وبيّن ما فيها من أغراض، وما اشتملت عليه من موضوعات، وكان مما قاله : «... ، ولمَّا قضى حقَّ ذلك كلّه بأبدع بيان ، وأوضح برهان، انتقل إلى قسم تشريعات الإسلام إجمالاً بقوله : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ [١٧٧] ، ثم تفصيلاً: القصاص، الوصية، الصِّيام، الاعتكاف، الحج، الجهاد، ونظام المعاشرة والعائلة، المعاملات المالية، والإنفاق في سبيل الله، والصَّدقات، والمسكرات، واليتامى، والمواريث، والبيوع والرِّبا، والدِّيون، والإشهاد، والرَّهن، والنِّكاح، وأحكام النِّساء، والعِدَّة، والطَّلاق، والرَّضاع، والنفقات، والأيمان» . وأردف هذا الاستعراض ـ رحمه الله ـ بقوله: «وختمت السُّورة بالدُّعاء المتضمن لخصائص الشَّريعة الإسلامية، وذلك من "جوامع الكَلِم"، فكان هذا الختام تذييلاً وفَذْلَكَة[٩٠] ... . وكانت في خلال ذلك كلّه أغراض شتى سيقت في معرض الاستطراد في متفرّق المناسبات ؛ تجديداً لنشاط القارئ والسَّامع، كما يُسفِرُ وجه الشَّمس إثر نزول الغيوث الهوامع، وتخرج بوادر الزّهر عقب الرّعود القوارع ، من تمجيد الله وصفاته : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [٢٥٥]، ورحمته ، وسماحة الإسلام، وضرب أمثال : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾ [١٩] ، واستحضار نظائر : ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ ﴾ [٧٤] ، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ ﴾ [٢٤٣]، وعلم وحكمة ، ومعاني الإيمان والإسلام ، وتثبيت المسلمين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [١٥٣] ، والكمالات الأصلية، والمزايا التحسينية ، وأخذ الأعمال والمعاني من حقائقها وفوائدها لا من هيئاتها ، وعدم الاعتداد بالمصطلحات إذا لم تَرِم إلى غايات : ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ [١٨٩]،﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ [١٧٧] ،﴿ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [٢١٧]، والنظر والاستدلال،

---

(٨٩) **انظر** : معلمة زايد (١/ ٢٤٠) .

(٩٠) **الفَذْلَكَة في كلام العلماء يراد بها** : إجمال ما فُصِّلَ أوَّلاً ، كذا ذكر الخفاجي في حاشية البيضاوي .

ويقال أيضاً هي : مجمل الكلام وخلاصته ... . **وقد يراد بها** : النتيجة لِمَا سبق من الكلام والتفريع عليه» .

انظر : **كشَّاف مصطلحات الفنون** (٢/ ١٢٦٤) . **وقال الكَفَوي في الكليات** (١/ ٦٩٦ـ٦٩٧) :«**الفذلكة** : هُوَ مَأْخُوذ من قَول الحساب : "فَذَلِك كان كذا"، فذلك إشارة إلى حاصل الحساب ونتيجته، ثم أطلق لفظ الفذلكة لكل ما هو نتيجة متفرِّعة على ما سبق حساباً كان أو غيره، ونظير هذا الأخذ أخذهم نحو البسملة والحمدلة ونظائرهما من الكلمات المركَّبة المعلومة، وهذا يسمى بالنحت، وقد يكون مثل ذلك في النسب كَعَبْقَسِي وعَبْشَمِي إلى غير ذلك». **وفي المعجم الوسيط** (٢/ ٦٧٨) : «الفَذْلَكَة مُجمل مَا فُصِّلَ وخلاصته ، "مُحْدَثَة"» . **وقد بيّن الطاهر** ـ رحمه الله ـ **في موطن آخر من تفسيره** (٢/ ٢٢٨) **معنى الفَذْلَكَة، فقال** : «**وقوله** : ﴿تلك عشرة كاملة﴾ فذلكة الحساب ، **أي** : جامعته ، فالحاسب إذا ذكر عددين فصاعداً، قال عند إرادة جمع الأعداد : فذلك ، **أي** : المعدود كذا ، فصيغت لهذا القول صيغةُ نحتٍ مثل: "بَسْمَلَ"، **إذا قال** : باسم الله، و"حَوْقَل"، **إذا قال** : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فحروف فَذْلَكَة متجمعة من حروف فذلك» .

ونظام المحاجة، وأخبار الأمم الماضية، والرّسل وتفاضلهم، واختلاف الشّرائع»[91]. أ.هـ .

بالنظر في كلام ابن عاشور ـ رحمه الله ـ الآنف يجد الباحث أنه ساقه في معرض حديثه عن مقاصد سورة البقرة وأغراضها ، وكان في خلال تناوله ذلك ينظر بعين المتدبر البصير في آيات الذكر الحكيم، وللطاهر نظراتٌ عجيبةٌ في هذا الباب قلَّ أن تجدها عند غيره من المفسّرين، وهي آتيةٌ مِن عَيشِهِ العَميق مع آيات كتاب الله المجيد ،ساعده على ذلك تمكّنه من علوم الآلة الخادمة لكتاب الله ـ تعالى ـ، وفي مقدّمتها علوم اللُّغة بأنواعها. وكان قد ذكر قبلُ أنَّ هذه الآية الكريمة جاءت تذييلاً وفَذْلَكَةً للآيتين الكريمتين قبلها: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ ﴾ . والحقُّ أنَّ ابن عاشور ـ رحمه الله ـ أعجز البَاحِثَ ـ على كثرة التنقيب ـ أن يظفر بأحدٍ مِن المفسّرين قديماً أو حديثاً ممن قد تعرَّض لِمَا تعرَّض له الطاهر عند هذه الآية الكريمة لا من قريبٍ أو بعيدٍ !، فضلاً عن التنصيص على أنها مِن "جوامع الكَلِم" ! .

وإنَّ تناول ابن عاشور للآية بتلك الطريقة الآنفة ، وربطها بالسّورة عموماً لا يتأتّى إلا ممن أدرك عظمةَ هذا الذكر الحكيم في جميع مناحيه، ومضاميره ، ومضامينه .

قال نظام الدّين النيسابوري ـ رحمه الله ـ : «ومَن تأمل في نظم هذه السُّورة، وفي بدائع ترتيبها عَلِم أنَّ القرآن كما أنه معجزٌ بسبب فصاحة ألفاظه ، وبلاغة معانيه، فهو أيضاً معجزٌ بحسب ترتيبه ونظم مبانيه، ولعلَّ الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك»[92].

على أنّ ثمَّة مُعَاصِراً للطاهر ألمحَ لنَزر يسير جداً مما بَاحَ به الطَّاهر هنا .

ففي الظِّلال خَتَمَ الحديثَ عن هذه الآية بما نصُّه : «إنه الختام الذي يلخص السُّورة، ويلخص العقيدة، ويلخص تَصَوُّر المؤمنين، وحالهم مع ربّهم في كلِّ حين»[93].

وكلّ مَن تعرَّض لها بالتفسير يأتي بالنواحي التفسيرية المعتادة في مثل هذا المقام ، مستخدماً إمّا التفسير الإجمالي ، أو التحليلي بطرائقه المعروفة . ومنهم مَن يُعَرِّج على جانب المناسبات ـ وهي ملحوظةٌ في هذا الموطن ـ ، كأبي السُّعود العِمَادي ـ رحمه الله ـ حيث قال : «﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ﴾ جملةٌ مستقلةٌ جيءَ بها إثرَ حكايةِ تلقِّيهم لتكاليفه ـ تعالى ـ بحسن الطَّاعة ؛ إظهاراً لِمَا له ـ تعالى ـ عليهم في ضمن التكليف من محاسنِ آثارِ الفضل والرَّحمة، ابتداءً لا بعد السُّؤال»[94].

وكابن سعدي ـ رحمه الله ـ حيث قال عند تفسير هذه الآية : «لَمَّا نَزَل قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ ﴾ شقَّ ذلك على المسلمين لِمَا توهَّمُوا أنَّ ما يقع في القلب من الأمور اللازمة والعارضة المستقرة وغيرها مؤاخذون به، فأخبرهم بهذه الآية أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها ، أي : أمراً تسعه طاقتها، ولا يكلِّفها ويشُقُّ عليها، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ ﴾ [الحج:٧٨] .... ولمَّا أخبر ـ تعالى ـ عن إيمان الرَّسول والمؤمنين معه ، وأنَّ كلَّ عامل سيُجَازَى بعمله، وكان الإنسان عرضةً للتقصير والخطأ والنسيان، وأخبر أنه لا يكلِّفنا إلا ما نطيق وتَسَعُهُ قوتنا، أخبر عن دعاء المؤمنين بذلك ... »[95].

وبعد : فالمُتَبَصِّرُ في هذا الآية الكريمة وربطها بالضّابط الذي سَلَفَ قبلُ في تعريف "جوامع الكَلِم" لعله لا يظهر له انطباق وَصْفُ "جوامع الكَلِم" عليها ، لكن بالتّظر إلى جانب آخر من حيث أنها تنتظم جميع التكاليف الواردة في السّورة الكريمة، وإفادتها أنَّ الحق ـ تعالى ـ لا يُكَلِّفُ منها عبادَه إلا ما يُطيقون ، فلا ريب أنها جامعة بهذا الاعتبار . وإذاً فإنَّ صنيع ابن عاشور ـ رحمه الله ـ ها هنا يُعتبرُ تفرُّداً في مضمونه ، وفي الوقت عينه تميّزاً بحسب سبقه عن غيره من المفسّرين ، وهو محقٌّ في إدراج هذه الآية الكريمة في عِقْدِ "جوامع الكَلِم" ؛ لِمَا حَوتْهُ من معان عديدةٍ ، ضَمَّت فيها خلاصة سورة عظيمة كسورة البقرة . والله أعلم .

المطلب الثاني : آيةُ سورة البقرة [١٧٩] ، وفيها : إبطال التكايل بالدّماء ، وإبطال قتل واحدٍ من قبيلة القاتل إذا لم يظفروا بالقاتل .

---

(٩١) التحرير والتنوير (١/٢٠٥ـ٢٠٦) .

(٩٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٢/٨٦) .

(٩٣) في ظلال القرآن (١/٣٤٧) .

(٩٤) إرشاد العقل السليم (١/٢٧٦) .

(٩٥) تيسير الكريم الرحمن (١٢٠) .

ذهب العلاَّمة مُحَمَّد الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ إلى القول عن جزء آية سورة البقرة : ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩ ﴾ [١٧٩] بأنها من "جوامع الكَلِم"، إذ قال ما نصّه: «وقوله : ﴿ فِيۡ ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ من "جوامع الكَلِم"، فاق ما كان سائراً مَسْرَى المثل عند العرب، وهو قولهم : "القتل أَنفَى للقتل"[٩٦]، وقد بيّنه السّكّاكي في "مفتاح العلوم"، وذيّله مَن جاء بعده من علماء المعاني ، ونزيد عليهم : أنَّ لفظ "القصاص" قد دلَّ على إبطال التكايل بالدّماء، وعلى إبطال قتل واحدٍ من قبيلة القاتل إذا لم يظفروا بالقاتل، وهذا لا تفيده كَلِمَتُهُم الجامعة»[٩٧].

لا ريب أنَّ قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ غايةٌ في الفصاحة والبيان، وأنه في الإيجاز بالمكان العالي، وهو بهذا الوصف يتحقق فيه أنه من "جوامع الكَلِم"، وقد تَوَارَدَ على جَعْله كذلك[٩٨] جملةٌ من العلماء غير أنهم لم ينصّوا على ما نصَّ عليه ابن عاشور.

قال السكاكي ـ رحمه الله ـ : «والعَلَمُ في الإيجاز قولُهُ ـ عَلَتْ كلمتُهُ ـ: ﴿ فِيۡ ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾، وإصابته المَحَزّ بفضله على ما كان عند أوجز كلام في هذا المعنى ، وذلك قولهم : "القتل أنفى للقتل"»[٩٩].

وقال ابن قتيبة ـ رحمه الله ـ :«وجَمَعَ الكثير من معاينه في القليل من لفظه، وذلك معنى قول رسول الله ـ ﷺ ـ : «أوتيت جوامع الكَلِم» . فإن شئت أن تعرف ذلك فتدبر قوله سبحانه ...، ـ ثمّ أورد آيات فيها وصف "جوامع الكَلِم" حتى قال ـ : وفي قوله ـ جلّ ذكره ـ : ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ يريد أنَّ سَافِكَ الدم إذا أُقيد منه ارتدع من كان يهمّ بالقتل ، فكان في القصاص له حياة ، وهو قتل ... »[١٠٠].

وقال الماوردي ـ رحمه الله ـ : «فأمَّا إعجاز القرآن الذي عجزت به العرب عن الإتيان بمثله، فقد اختلف العلماء فيه على ثمانية أوجه : أحدها: أن وجه إعجازه، هو الإيجاز والبلاغة، حتى يشتمل يسير لفظه على كثير المعاني، مثل قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ فجمع في كلمتين، عدد حروفها عشرة أحرف، معاني كلام كثير»[١٠١].

وقال الفخر الرّازي ـ رحمه الله ـ : «اتفق علماء البيان على أنَّ هذه الآية في الإيجاز مع جمع المعاني باللُّغة بالغة إلى أعلى الدرجات، وذلك لأنَّ العرب عبَّروا عن هذا المعنى بألفاظ كثير، كقولهم : قتل البعض إحياء للجميع، وقول آخرين: أكثروا القتل؛ ليقل القتل، وأجود الألفاظ المنقولة عنهم في هذا الباب قولهم : القتل أنفى للقتل، ثم إن لفظ القرآن أفصح من هذا، وبيان التفاوت من وجوه ...»[١٠٢].

وقال القرطبي ـ رحمه الله ـ : «قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ هذا من الكلام البليغ الوجيز كما تقدّم ، ومعناه : لا يقتل بعضكم بعضاً، رواه سفيان عن السّدّي عن أبي مالك .

والمعنى : أنّ القصاص إذا أُقيم وتحقّق الحكم فيه ازدجر من يريد قتل آخر ؛ مخافةَ أن يُقتصّ منه ، فَحَيِيا بذلك معاً . وكانت العرب إذا قتل الرجل الآخر حَمِيَ قبيلاهما وتقاتلوا ، وكان ذلك داعياً إلى قتل العدد الكثير ، فلمّا شَرَعَ الله القصاص قَنِعَ الكلّ به ، وتركوا الاقتتال ، فلهم في ذلك حياة»[١٠٣].

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : «وقوله : ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ يقول ـ تعالى ـ : وفي شرع القصاص لكم، وهو قتل القاتل حكمةٌ عظيمةٌ ، وهي بقاء المُهَج وصونها، لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه، فكان في ذلك حياة للنفوس، وفي الكتب المتقدمة : "القتل أنفى للقتل"، فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح ، وأبلغ ، وأوجز»[١٠٤].

وقال السُّيوطي ـ رحمه الله ـ : «وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ فإنَّ معناه كثيرٌ ولفظه قليلٌ ؛ لأنَّ معناه : أن الإنسان إذا علم أنه متى قَتَلَ قُتِلَ ، كان ذلك داعياً إلى ألا يقدِم

---

(٩٦) **انظر** : مجمع الأمثال للميداني (١/١٠٥) برقم (٥٢٩) .

(٩٧) التحرير والتنوير (٢/١٤٥) .

(٩٨) **أعني : الإيجاز ، أو أنه من "جوامع الكَلِم" .**

(٩٩) مفتاح العلوم (١/٢٧٧) .

(١٠٠) تأويل مشكل القرآن (٣ـ٤ ، ٦) .

(١٠١) النكت والعيون (١/٣٠) . **وانظر أيضاً** : الكشّاف (١/٣٧٢ـ٣٧٣) .

(١٠٢) مفاتيح الغيب (٥/٢٢٩) . **وانظر أيضاً** : غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١/٤١٦) .

(١٠٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٥٢) . **وانظر أيضاً** : روح المعاني للألوسي (٢/٤٤٨) .

(١٠٤) تفسير القرآن العظيم (١/٣٦٠) .

على القتل ، فارتفعَ بالقتل الذي هو القصاص كثيرٌ من قتل الناس بعضهم لبعض ، وكان ارتفاعُ القتلُ حياة لهم»[١٠٥] .

وقال الشَّوكاني ـ رحمه الله ـ : «قوله : ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾، أي : لكم في هذا الحكم الذي شرعه الله لكم حياة ؛ لأنَّ الرّجل إذا علم أنه يُقتَل قصاصاً إذا قتل آخر كفَّ عن القتل، وانزجر عن التسرّع إليه ، والوقوع فيه، فيكون ذلك بمنزلة الحياة للنفوس الإنسانية. وهذا نوع من البلاغة بليغ، وجنس من الفصاحة رفيع ؛ فإنه جعل القصاص الذي هو موت حياة باعتبار ما يؤول إليه من ارتداع الناس عن قتل بعضهم بعضاً؛ إبقاءً على أنفسهم ، واستدامة لحياتهم»[١٠٦] .

وفي تناول العلماء ـ رحمهم الله ـ ، وخاصّة منهم أولئك الذين صنّفوا في البلاغة[١٠٧] هذه الآية الكريمة ، ومن ثَمَّ مايزتها بوجوه كثيرة عن مَثَل العرب المذكور آنفاً، إقرارٌ صريحٌ بأنّ تلك الآية من جوامع الكَلِم الكبرى في كتاب الله ـ تعالى ـ .

مع أنّه ما كان يَخْفَى على الطاهر ـ رحمه الله ـ تلك الوجوه المتعددة التي ذكرها العلماء يُعلُونَ بها شأن هذه الجملة القرآنية ـ وهي عالية حقاً ـ على عبارة المثل العربي المتداول، وزاد ما لم يتعرّض له الأقدمون، وذلك قوله ـ رحمه الله ـ:«ونزيد عليهم: أنّ لفظ "القصاص" قد دلَّ على إبطال التكايل بالدّماء، وعلى إبطال قتل واحدٍ من قبيلة القاتل إذا لم يظفروا بالقاتل، وهذا لا تفيده كلمتهم الجامعة»[١٠٨] .

ولقد عَمَدَ الزّركشي في "البرهان"[١٠٩] ، وعنه السُّيوطي في "الإتقان"[١١٠] إلى تلك الوجوه المذكورة للتغاير ، فضمّناها كتابيهما ، وزادا عليها ، حتى بلغت عشرين وجهاً أو أكثر[١١١] .

---

(١٠٥) الإتقان (٣/٨٣٠) .

(١٠٦) فتح القدير (١/٢٠٣) . **وانظر أيضاً** : تفسير المراغي (٢/٦٣ـ٦٤) .

(١٠٧) **انظر في ذلك** : كتاب الصّناعتين (١٩٥)، والمثل السّائر (٢/٢٧٥ـ٢٧٧)، وتحرير التحبير في صناعة الشّعر والنثر (١/٤٦٨ـ٤٦٩)، والإيضاح في علوم البلاغة(٣/١٨١ـ١٨٢) ، والطراز لأسرار البلاغة (٢/٦٩)، و(٣/١٧٦)، والشّفاء في بديع الإكتفاء (١/٣٧) .

(١٠٨) التحرير والتنوير (٢/١٤٥) .

(١٠٩) **انظر** : (٣/٢٢٢ـ٢٢٥) .

(١١٠) **انظر** : (٣/٨٣٠ـ٨٣٢) .

(١١١) **منها** : أنَّ **قوله** : ﴿ ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ أوجز؛ فإن حروفه عشرة ، **وحروف** : "القتل أنفى للقتل" أربعة عشر .

- أن تنكير "حياة" يفيد تعظيماً، فيدل على أنَّ في القصاص حياة متطاولة، **كقوله** ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ ﴾ [البقرة: ٩٦] ، ولا كذلك المَثَل، فإنَّ اللاّم فيه للجنس ، ولذا فسَّروا الحياة فيها بالبقاء .

المطلب الثالث : آيةُ سورة النساء [٣٢] ، وفيها : النهيُ عن التمنّي ، وتطلع النفوس إلى ما ليس لها ؛ دَرْءاً للشُّرور .

ذهب العلاَّمة محمّد الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ إلى القول عن جزء آية سورة النساء : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ ... ﴾ [٣٢] بأنها من "جوامع الكَلِم"، جاء ذلك في سياق ذكر المناسبة بين هذه الآية وبين قوله ـ تعالى ـ : ﴿ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ .... وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ ﴾ [النساء:٢٩] ، إذ قال: «والمناسبة بين الجملتين المتعاطفتين : أنَّ التمني يُجبِّب للمُتَمَنّي الشَّيءَ الذي تَمَنّاه، فإذا أحبه أتبعَه نفسه ، فرام تحصيله ، وافتتن به، فربما بعثه ذلك الافتتان إلى تدبير الحيل ؛ لتحصيله إن لم يكن بيده ، وإلى الاستئثار به عن صاحب الحق، فيُغْمِضُ عينه عن ملاحظة الواجب من إعطاء الحق صاحبه ، وعن مناهي الشَّريعة التي تضمَّنتها الجمل المعطوف عليها ... . فالنَّهي عن التمنّي ، وتطلّع النفوس إلى ما ليس لها ، جاء في هذه الآية عاماً، فكان كالتذييل للأحكام السابقة ؛ لسد ذرائعها وذرائع غيرها، فكان من "جوامع الكَلِم" في درء الشُّرور . وقد كان التمنّي من أعظم وسائل الجرائم، فإنه يُفضِي إلى الحسد، وقد كان أوّل جُرْم حصل في الأرض نشأ عن الحسد. ولقد كَثُرَ ما انتُهِبَت

- أن الآية خالية من تكرار لفظ "القتل" الواقع في المثل ، والخالي من التكرار أفضل من المشتمل عليه ، وإن لم يكن مُخِلاً بالفصاحة.
- أن في المَثَل توالي أسباب كثيرة خفيفة ، وهو السُّكون بعد الحركة، وذلك مُسْتَكره ؛ فإنّ اللّفظ المنطوق به إذا توالت حركاته تمكّن اللسان من النطق به، وظهرت فصاحته ، بخلاف ما إذا تعقب كلّ حركة سكون ، فالحركات تنقطع بالسّكنات، نظيره إذا تحرَّكَت الدَّابَّة أدْنى حركة فحبست ، ثم تحرَّكت فحبست لا يتبين إطلاقها ولا تتمكّن من حركتها على ما تختاره ، فهي كالمقيدة .
- سلامتها من لفظ القتل المشعر بالوحشة ، بخلاف لفظ "الحياة" ؛ فإنَّ الطِّباع أقبل له من لفظ القتل .
- أنَّ لفظ القصاص مُشْعِر بالمساواة ، فهو منبئٌ عن العدل ، بخلاف مطلق القتل .
- أن الآية رادعة عن القتل والجرح معاً ؛ لشمول القصاص لهما ، والحياة أيضاً في قصاص الأعضاء؛ لأنّ قطع العضو ينقص مصلحة الحياة ، وقد يَسْري إلى النفس فيزيلها ، ولا كذلك المثل .
- **وفي أول الآية** : ﴿ وَلَكُمۡ ﴾ ، **وفيها لطيفة** ، وهي بيان العناية بالمؤمنين على الخصوص ، وأنهم المراد حياتهم لا غيرهم ؛ لتخصيصهم بالمعنى مع وجوده فيمن سواهم. **وللاستزادة من تلك الوجوه يُنظر**: مفاتيح الغيب (٥/٢٢٩ـ٢٣٠)، والكشاف (١/٣٧٢ـ٣٧٣)،حاشية رقم (٢) ،وإرشاد العقل السليم (١/٢٣٨)، وروح المعاني (٢/٤٤٨)،والبرهان للزركشي (٣/٢٢٢ـ٢٢٥)، والإتقان (٣/٨٣٠ـ٨٣٢)، ومحاسن التأويل (٢/٨ـ١١)، ووحي القلم للرافعي (٣/٤٠٣ وما بعدها)، وزهرة التفاسير (١/٥٣٩) .

أموال، وقُتِلَتْ نفوسٌ ؛ للرغبة في بَسْطَة رزق، أو فتنة نساء، أو تَوال مُلْكٍ، والتاريخ طافحٌ بحوادث من هذا القبيل»[112].

هذا الفَهم الأريب من ابن عاشور ـ رحمه الله ـ الذي ساقه من تلك الآية الكريمة وَلَّدَهُ إيَّاهُ توظيفُه الحسنُ للمناسبات بين آيات الذكر الحكيم، وكذا استجلاؤه الحصيف لدلالات النصّ القرآني وإبانته عن الأحكام والمعاني الشَّرعية الواردة فيه .

وهـو ـ رحمه الله ـ لدى تقريره جَعْلَ قوله : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ من "جوامع الكَلِم" ليس بمعزل عن عبارات كثير من المفسّرين الذين سَبَقُوه، فتناولوا هذه الآية بالبيـان، وحامَوا حول الحمى، وإن لم يُصَرِّحُوا بما صرّح به ابن عاشور من أنها من "جوامع الكَلِم" .

وأحسِبُ أنّ مما يُسهم في تجلية كون الآية من "جوامع الكَلِم" إلى حد ما إدراك المعنى الحقيقي للتمني ، ذاك أنه «نوعٌ من الإرادة يتعلّق بالمستقبل، كالتلهّف نوع منها يتعلق بالماضي، فنهى الله ـ سبحانه ـ المؤمنين عن التمنّي؛لأنَّ فيه تعلّق البال ، ونسيان الأجل»[113].

قال الخازن ـ رحمه الله ـ : «أصل التمّني : إرادة الشيء ، وتشهّي حصول ذلك الأمر المرغوب فيه ، ومنه حديث النفس بما يكون وبما لا يكون . وقيل التمنّي : تقدير الشَّيء في النّفس وتصويره فيها ، وذلك قد يكون عن تخمين وظن، وقد يكون عن رؤية . وأكثر التمنّي تصوّر ما لا حقيقة له .

وقيل التمنّي : عبارة عن إرادة ما يُعْلَمُ أو يُظَنُّ أنه لا يكون»[114].

ومن ثَمَّ النظرُ بَعْدُ في عبارات المفسّرين في معنى الآية الكريمة .

قال ابن عباس ـ ﷺ: «هو الرَّجل يقول: وددت لو أنَّ لي مال فلان، فنهى الله ـ تعالى ـ عن ذلك، وأمرهم أن يسألوه من فضله؛ لأنَّ التمني يورث الحسد، والبغي»[115].

وقال ابن جرير ـ رحمه الله ـ: «يعني بذلك ـ جل ثناؤه ـ : ولا تشتهوا ما فضَّل الله به بعضكم على بعض . وذُكِر أنَّ ذلك نَزَل في نساءٍ تَمَنَّيْنَ منازلَ الرِّجال، وأن يكون لهنَّ ما لهم[116]، فنهى الله عباده عن الأماني الباطلة، وأمرهم أن يسألوه من فضله؛ إذ كانت الأمانيّ تورِثُ أهلَها الحسدَ، والبغيَ بغير الحق»[117].

ولعلّ ما ذهب إليه ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في هذه الآية مستفادٌ من كلام القفّال[118]، والفخر الرازي ، وأبي حيّان ـ رحمهم الله تعالى ـ إلى حدٍّ ما.

قال الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ : «المسألة الثالثة : أنَّ الإنسان إذا شاهد أنواع الفضائل حاصلة لإنسان، ووجد نفسه خالياً عن جملتها أو عن أكثرها، فحينئذ يتألَّم قلبه، ويتشَوَّش خاطره، ثم يعرض هاهنا حالتان : إحداهما : أن يتمنّى زوال تلك السَّعادات عن ذلك الإنسان. والأُخْرَى : أن لا يتمنّى ذلك، بل يتمنّى حصول مثلها له .

أما الأول فهو الحسد المذموم، لأن المقصود الأول لمدبر العالم وخالقه : الإحسان إلى عبيده ،

والجود إليهم ، وإفاضة أنواع الكرم عليهم، فمن تمنّى زوال ذلك فكأنه اعترض على الله ـ تعالى ـ فيما هو المقصود بالقصد الأول من خلق العالم وإيجاد المكلفين، وأيضاً ربما اعتقد في نفسه أنه أحقّ بتلك النعم

---

(١١٢) التحرير والتنوير (٢٨/٥) .

وكان مما استوحاه ـ رحمه الله ـ من الآية الكريمة مُنَزِّلاً إياه على الواقع الذي كان في زمنه قوله : «وقد أصبح هذا التمنِّي في زماننا هذا فتنة لطوائف من المسلمين سَرَتْ لهم من أخلاق الغُلاةِ في طلب المساواة ، **مما جَرَّ أُمَمَاً كثيرةً إلى نِحْلَة الشيوعية** ، فصاروا يتخبطون لطلب التساوي في كلِّ شيء ، ويعانون إرهاقاً لم يحصلوا منه على طائل» .

(١١٣) الجامع لأحكام القرآن (١٦٢/٥).

(١١٤) لباب التأويل في معاني التنزيل (٣٦٨/١) .

(١١٥) **انظر** : الهداية إلى بلوغ النهاية (١٣٠٧/٢)، والنكت والعيون (٤٧٧/١) .

(١١٦) أخرج الإمام أحمد في مسنده (٣٢٠/٤٤) ح(٢٦٧٣٦) ، والترمذي في سننه (٢٣٧/٥) ح(٣٠٢٢) تحقيق: شاكر عن مجاهد عن أُسلمه ـ رضي الله عنها ـ **أنها قالت** : يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو، ولنا نصف الميراث، **فأنزل الله** : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ... الآية﴾ . **والحديث سنده ضعيف إلى أُمّ سلمة** ـ رضي الله عنها ـ ، **وهو من مرسلات مجاهد** ـ رحمه الله ـ ، **فهو صحيح إليه** . **انظر** : المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة (٣٨١/١، ٣٥١). **وورد سببٌ آخر من أنّ النساء قلن** : «وَدِدْنَ أن الله جعل لنا الغزو، فنصيب من الأجر ما يصيب الرِّجال، فنزلت هذه الآية» ، **قاله عكرمة** .

وسبب ثالث : أنه لـمَّا نزل ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء:١١] ، **قال الرجال**: «إنا لنرجو أن نُفَضَّل على النساء بحسناتنا، كما فُضِّلْنا عليهن في الميراث» ، **وقال النساء**: «إنا لنرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرِّجال، كما لنا الميراث على النصف من نصيبهم، فنزلت هذه الآية» . **قاله قتادة، والسدي** .

انظر : أسباب النزول للواحدي (١٥٤)،وزاد المسير (٣٩٩/١)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٥٠/٢).

(١١٧) جامع البيان (٢٦٠/٨) تحقيق : شاكر .

(١١٨) **انظر** : إرشاد العقل السليم (١٣٠/٢)، والتحرير والتنوير (٢٩/٥) .

من ذلك الإنسان ، فيكون هذا اعتراضاً على الله ، وقَدْحاً في حكمته، وكلّ ذلك مما يلقيه في الكفر وظلمات البدعة، ويزيل عن قلبه نور الإيمان، وكما أنّ الحسد سبب للفساد في الدّين، فكذلك هو السَّبب للفساد في الدنيا، فإنه يقطع المودة والمحبة والموالاة، ويقلِب كلّ ذلك إلى أضدادها، فلهذا السَّبب نهى الله عباده عنه،فقال :

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾»[119].

وقال أبو حيان الأندلسي ـ رحمه الله ـ : «ومناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه ـ تعالى ـ لمَّا نهى عن أكل المال بالباطل ، وعن قتل الأنفس ، وكان ما نَهَى عنه مَدْعَاة إلى التبسُّط في الدُّنيا ، والعلو فيها، وتحصيل حُطَامِها، نهاهم عن تمنّي ما فضَّل الله به بعضهم على بعض؛ إذ التمنّي لذلك سبب مُؤَثِّر في تحصيل الدّنيا ، وشوق النفس إليها بكلّ طريق، فلم يكتف بالنهي عن تحصيل المال بالباطل ، وقتل الأنفس، حتى نهى عن السَّبب المُحَرِّض على ذلك، وكانت المبادرة إلى النّهي عن المُسَبَّبِ آكد ؛ لفظاعته ، ومشقته ، فبُدِيء به، ثم أتبع بالنهي عن السَّبب ؛ حَسْمَاً لمادة المُسَبَّبِ، وليوافق العمل القلبي العمل الخارجي ، فيستوي الباطن والظاهر في الامتناع عن الأفعال القبيحة»[120].

وقد ألمح إلى بعض هذا المعنى الشيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ عند تفسيره هذه الآية ، حيث قال : «ينهى ـ تعالى ـ المؤمنين عن أن يتمنّى بعضهم ما فضل الله به غيره من الأمور الممكنة وغير الممكنة. فلا تتمنَّى النساء خصائص الرِّجال التي بها فَضَّلَهُم على النساء، ولا صاحب الفقر والنقص حالة الغِنَى والكمال ، تمنياً مجرداً ؛ لأنَّ هذا هو الحسد بعينه، تمنّي نعمة الله على غيرك أن تكون لك ، ويُسْلَب إياها. ولأنه يقتضي السُّخط على قدر الله ، والإخلاد إلى الكسل والأماني الباطلة التي لا يقترن بها عمل ولا كسب . وإنما المحمود أمران: أن يسعى العبد على حسب قدرته بما ينفعه من مصالحه الدينية والدنيوية، ويسأل الله ـ تعالى ـ من فضله، فلا يتكِل على نفسه ، ولا على غير ربه .

ولهذا قال ـ تعالى ـ : ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ﴾، أي : من أعمالهم المُنتِجَة للمطلوب. ﴿ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴾، فكلٌّ منهم لا يناله غير ما كسبه، وتَعِب فيه . ﴿ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ ، أي : من جميع مصالحكم في الدّين والدّنيا .

فهذا كمال العبد ، وعنوان سعادته ، لا مَن يترك العمل ، أو يتكِل على نفسه غير مفتقر لربه، أو يجمع بين الأمرين ، فإنَّ هذا مخذولٌ خاسرٌ»[121].

وقد ذكر ابن عاشور ـ رحمه الله ـ آنفاً إبّان تَسْبيبِهِ جعل النهي عن التمنّي من "جوامع الكَلِم" أنّ النهي في الآية جاء عامَّاً غير محصور في شيءٍ خاص، وذكر أنّ التمنّي هو الباعث الرئيس لحدوث الجرائم ، وأنه موصِلٌ إلى الحسد المُفْضِي إلى معظم الشّرور .

وقد أشار إلى شيءٍ هذا بعضُ معاصريه بقوله : «والنصُّ عام في النهي عن تمنّي ما فضل الله بعض المؤمنين على بعض. من أيّ أنواع التفضيل، في الوظيفة ، والمكانة . وفي الاستعدادات، والمواهب، وفي المال، والمتاع. وفي كل ما تتفاوت فيه الأنصبة في هذه الحياة .

والتوجه بالطلب إلى الله، وسؤاله من فضله مباشرة، بدلاً من إضاعة النفس حَسَرات في التطلّع إلى التفاوت ، وبدلاً من المشاعر المصاحبة لهذا التطلع من حسد ، وحقد ، ومن حَنَق كذلك ، ونقمة، أو من شعور بالضَّياع والحرمان، والتهاوي والتهافت أمام هذا الشعور. وما قد ينشأ عن هذا كلِّه من سوء ظن بالله ، وسوء ظن بعدالة التوزيع . حيث تكون القاصمة، التي تذهب بطمأنينة النفس، وتورث القلق والنكد ، وتستهلك الطاقة في وجدانات خبيثة، وفي اتجاهات كذلك خبيثة.

بينما التوجّه مباشرة إلى فضل الله ، هو ابتداء التوجه إلى مصدر الإنعام والعطاء، الذي لا ينقص ما عنده بما أعطى، ولا يضيق بالسّائلين المتزاحمين على الأبواب!.. . بَدَلَ بذل الجهد في التحرّق ، والغيظ ، أو التهاوي ، والانحلال!. النص عام في هذا التوجيه العام»[122].

ويَسْبُر ابن عاشور ـ رحمه الله ـ السِّياق القرآني ـ السِّباق منه خاصّة ـ؛ ليُفصِحَ عن بعض مظاهر التمنّي التي كانت حاضرةً لدى الصَّحابة الكرام ﷺ وقت تنزّل القرآن، ومن ثَمَّ نُهُوا عنه ، وهذا السَّبر منه والإحاطة يُسهم جداً في تحقيق كون الآية من "جوامع الكَلِم".

فهو يقول : «والذي يبدو أن هذا التمنّي هو تمنّي أموال المُثْرين ، وتمنّي أنصباء الوارثين ، وتمنّي الاستئثار بأموال اليتامى ذكورهم وإناثهم، وتمنّي حِرْمَان النّساء من الميراث؛ ليناسب ما سبق من إيتاء اليتامى أموالهم ، وإنصاف النّساء في مُهُورهِنّ، وترك مضارّتهن؛ إلجاء إلى إسقاطها، ومن إعطاء أنصباء الورثة كما قَسَمَ الله لهم . وكلّ ذلك من تفضيل بعض الناس على بعض في الرّزق»[123].

---

(١١٩) مفاتيح الغيب (٦٥/١٠) .

(١٢٠) البحر المحيط (٦١٦/٣) .

(١٢١) تيسير الكريم الرحمن (١٧٦) .

(١٢٢) في ظلال القرآن (٦٤٢/٢) .

(١٢٣) التحرير والتنوير (٢٨/٥) .

ولقد وُفِّقَ ـ رحمه الله ـ في دَرْجِ ذاك الجزء من الآية الكريمة في "جوامع الكَلِم"؛ لِجَمْعِهِ تلك المعاني المذكورة ، وغيرها مما لا يعلمه إلا الله ـ تعالى ـ على وَجَازَة لفظٍ، وقِصَر رسم .

المطلب الرَّابع : آيةُ سورة الأعراف [٦٣] ، وفيها : إبطالٌ لدعوى الخَصْم ، والاستدلال لصدق دعوى المجادِل .

ذهب العلاَّمة مُحَمَّد الطَّاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ إلى القول عن جزء آية سورة الأعراف : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [٦٣] بأنه من "جوامع الكَلِم"،حيث قال ما يلي :

«وتنكير ﴿ ذِكْرٌ ﴾ ، و﴿ رَجُلٍ ﴾ للنَّوعية ؛ إذ لا خصوصية لِذِكْر دون ذِكْر، ولا لرجل دون رجل؛ فإنّ النّاسَ سواء، والذِّكْر سواء في قبوله لمن وفّقه الله ، وردّه لمن حُرِم التوفيق، أي : هذا الحَدَث الذي عظَّمتُمُوه وضَجَجْتُم له ، ما هو إلا ذِكْرٌ من ربكم على رجل منكم.

ووصْفُ ﴿ رَجُلٍ ﴾ بأنّه منهم ، أي : من جنسهم البشري فَضْحٌ لشبهتهم ، ومع ما في الكلام من فَضْح شبهتهم ، فيه أيضاً ردٌّ لها بأنّهم أحقّاء بأن يكون ما جعلوه مُوجِبَ استبعادٍ واستحالةٍ هو مُوجِب القَبول والإيمان ؛ إذِ الشأن أن ينظروا في الذِّكر الذي جاءهم مِن ربّهم ، وأن لا يُسْرِعُوا إلى تكذيب الجائي به ، وأن يعلموا أنّ كونَ المُذَكِّر رجلاً منهم أقرب إلى التعقّل من كون مُذَكِّرِهم من جنس آخر من مَلَكٍ أو جِنّيٍّ، فكان هذا الكلام من "جوامع الكَلِم" في إبطال دعوى الخصم ، والاستدلال لصدق دعوى المجادل، وهو يتنزّل منزلة سَنَد المنع في علم الجدل[124] » [125] . أ.هـ .

(١٢٤) **المنع في اصطلاح علم الجدل :** طلب الدّليل على مقدّمة معينة من دليل الخصم . وقد يكون مصحوباً بالسّند ـ وأقسامه ثلاثة ـ ، وقد لا يكون مصحوباً ، والسّند ليس من باب الدّليل ، ولذا لم يُعَدّ ذكر المنع معه غَصْبَاً ، بخلاف الدَّليل فالمنع معه غصبٌ . **انظر** : حاشية الصبّان على آداب ملا حنفي (١١) .
ثُمَّ إنَّ تنزيل المنع بالسَّند على الآية الكريمة هو أن يُقال : إنّ الاستفهام إنكارٌ ، وهو يتضمن المنع ؛ إذ المطالبة بالدّليل فرعُ عدم التسليم ، **كأنه يقول:** أُطالبكم بالدّليل على منعكم ـ والمنع هنا بالمعنى اللُّغوي ، وليس بالمعنى الاصطلاحي المذكور قبلُ ـ ، ورفضكم مجيء الذِّكْر على رجل. **وقوله** : "منكم" يُنزّل منزلة سند المنع الذي هو أخصّ من نقيض المقدّمة الممنوعة ؛ لأنَّ الممنوعة هي "رفض مجيء الذِّكْر على رجل"، ونقيضها هو "عدم رفض مجيء الذّكر على رجل" . وهذا يشمل أن يكون الرَّجل "منكم" ، أو "ليس منكم"، فجاء السّند بالأخصّ من النّقيض ، وهو مقبول ، **كأنه يقول** : لا أُسلم رفض مجيء الذِّكْر على رجل ، كيف وحال هذا الرَّجل أنه منكم، فاتضح السّند . وبه اتضح أن "منكم" جار ومجرور في محل نصب حال تفيد بيان الجنس، **وفقاً لقاعدة مهمة :** "أنّ الأوصاف بعد الأجناس بيانٌ لها". والله أعلم .

ما ثَمّة أحدٌ ممن تقدّم من أهل التفسير أو تأخّر ذَهَبَ إلى هذا المذهب العميق في فَهم الآية الكريمة كما نحا إليه ابن عاشور ـ رحمه الله ـ . وإن كان السَّابقون واللاَّحقون من المفسّرين قد تناولوا معنى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾ بمزيد بيان، وذكروا فائدة إيراد السِّياق القرآني لها تمّة . وسبب دَرْج ابن عاشور ـ رحمه الله ـ جزء هذه الآية في "جوامع الكَلِم" أنه ضَمَّ على وجازة لفظه ، وقِلَّةِ حروفِهِ معانيَ متعددة في الردّ على قوم نوح إنكارهم نبوة نوح ـ عليه السلام ـ.

وشأنُ الأمم الماضية في الإتكاء على عَصَا بشرية المُرْسَلين في إنكار الرِّسالات شأنٌ قديمٌ حكاه القرآن الكريم كثيراً عنهم، ونقل لنا تعجّبهم، حيث قالوا : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [إبراهيم:١٠]، وقالوا : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المؤمنون]، وقالوا: ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [المؤمنون] ، وقالوا متعجِّبين : ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء] ، وقال: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ [الأعراف:٦٣،٦٩] . وقال في عَجَبِ قوم نبيّنا ـ ﷺ ـ: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ [يونس:٢]، وقال : ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [ق:٢] ، وقال عمّن تقدَّم : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾ [التغابن] ، وقال عن ثمود : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القمر] .

(١٢٥) التحرير والتنوير (٨/١٩٥ـ١٩٦) .

ونقل القرآن لنا مطالبة الكافرين جَعْل الرَّسول إليهم مَلَكاً ، أو أن يُؤيّد بِمَلَك يكون معه نذيراً، حيث قالوا : ﴿ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۙ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ ﴾ [الفرقان] . وقالوا: ﴿ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ ﴾ [الأنعام:٨] . وقالوا : ﴿ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [الفرقان:٢١] . بل صرَّح الحقُّ ﷻ بأنَّ هذا العَجَب من إرسال بشر كان مانعاً قَوِيّاً للناس من الإيمان، فـــقال ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ۝٩٤ ﴾ [الإسراء](١٢٦). ومع هذه النصوص الوفيرة في بيان تكذيبِ الأُمم رُسُلَهم وتَعَجُّبِهم من كون شخص منهم بُعِثَ إليهم رسولاً من الله، لقد كان الأولى أن يتعجَّبوا مِن كون الصَّنم والوثن شريكاً لله ، وإنّ في إغفالِهم ذلك لدلالة على فرط جهالتهم، وعظيم حماقتهم[١٢٧] .

وقد حصر الفخر الرَّازي ـ رحمه الله ـ مجامع الوجوه العقلية التي لأجلها أنكر الكفارُ الرِّسالاتِ عموماً، وبَعْثَ رجل مِن بني البشر على جهة الخصوص، وذلك أنهم : «استبعدوا أن يكون لله رسول إلى خلقه ؛ لأجل أنهم اعتقدوا أنَّ المقصود من الإرسال هو التكليف، والتكليف لا منفعة فيه للمعبود ؛ لكونه متعالياً عن النفع والضَّرر ، ولا منفعة فيه للعابد؛ لأنه في الحال يوجب المضرّة العظيمة، وكلَّمَا يُرْجَى فيه من الثواب ودفع العقاب، فالله قادر على تحصيله بدون واسطة التكليف، فيكون التكليف عبثاً، والله متعال عن العبث، وإذا بطل التكليف بطل القول بالنبوة . وأنهم وإن جوَّزوا التكليف إلا أنهم قالوا: ما عُلِم حسنُه بالعقل فَعَلْنَاه، وما عُلِم قبحُه تركناه ، وما لا نعلم فيه لا حسنه ولا قبحه ، فإن كنّا مضطرين إليه فعلناه؛ لعلمنا أنه متعال عن أن يكلِّف عبده ما لا طاقة له به ، وإن لم نكن مضطـــرّين إليه تركناه ؛ للحذر عن خطر العقاب . ولـمَّا كان رسولُ العقل كافياً فلا حاجة إلى بِعْثَةِ رسول آخر . وأنه على تقدير : أنه لا بد من الرَّسول ، فإنّ إرسال الملائكة أولى؛ لأنَّ محاسنهم أشدّ، وطهاراتهم أكمل ، واستغناءهم عن المأكول والمشروب أظهر ، وبعدهم عن الكذب والباطل أعظم . وأنه على تقدير : أن يبعث رسولاً من البشر ، فلعلّ أقوامهم اعتقدوا أنَّ مَن كان فقيراً ، ولم يكن له تبع ورئاسة، فإنه لا يليق به منصب الرِّسالة . ولذا فَهُم يَصِفُونَ الأنبياء والرسل المُكَرَّمين بالجنون، والعَتَه، والسَّفه، وتخييلات الشَّيطان ؛ عندما يذكرون لأقوامهم ما ينزل عليهم من ناموس الوحي»[١٢٨] .

ومقابل تلك الشُّبَهِ المبثوثة من جموع الكافرين في هذا الباب يأتي ردُّ الله ـ تعالى ـ عليهم في ذلك، فيذكر أنَّ سنته بعثُ الرُّسل من أوّل وَهْلَة رجالاً إلى أقوامهم، لهم خصائص وطبائع بني البشر،لا يختلفون عنهم،فقال ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ ﴾ [الأنبياء:٧]، وقال أيضاً: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾ [الفرقان:٢٠] . وردّ عليهم أيضاً شبهتهم في جعل الرَّسول مَلَكاً ، أو أن يؤيد بِمَلَكٍ ، فقال : ﴿ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ۝٩ ﴾ [الأنعام] .

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ : «ولو كان مَلَكاً فربما كان في اختلاف الجنس تنافر الطَّبع»[١٢٩] . وهذه الآية الأخيرة تفيضُ «ببيان سنة الله ـ تعالى ـ في إنزال الملائكة، وبيان عدم استعداد جمهور البشر لرؤيتهم ، والتلقّي عنهم في الدُّنيا، وإنما يُعِدُّ اللهُ بعضَ الأفراد من كُمَّلِهِمْ لذلك، فلا مندوحةَ إذا أُنزِلَ الملكُ عن جَعْلِهِ رجلاً،أي : متمثلاً في صورة رجل، وحينئذ يلتبس عليهم الأمر، وتبقى شبهتهم في موضعها ... . فقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ﴾ كاشفٌ لهذه الغمّة من الوهم، وهادٍ إلى ما يوافق سنن الفطرة من العلم، وقاطع على الدجّالين طريق الجبت والخرافات التي يخدعون بها أولي الأوهام والخيالات، فيوهِمُونَهم أنَّ الأولياء والقديسين فوق مرتبة البشر، ويقدرون على ما لا يقدر عليه غيرهم من البشر[١٣٠] »[١٣١] .

---

(١٢٦) **انظر** : مفاتيح الغيب (٦٤٨/٣) ، وأضواء البيان (٣٣/٢ـ٣٤) .

(١٢٧) **انظر** : لطائف الإشارات للقشيري (٥٤٤/١) .

(١٢٨) **انظر** : مفاتيح الغيب (٢٩٧/١٤) بتصرف . **وانظر أيضاً** : تفسير المنار (٢٤٦/٨) .

(١٢٩) الجامع لأحكام القرآن (٢٣٥/٧) .

(١٣٠) جَرَت عادة الناس أن تنسج في خيالاتها صوراً معينةً غريبةً فيها مبالغات لكلّ من كان منها ذا شأن أو منصب أو مكانة عالية ، **ويذكر الشيخ محمد رشيد رضا في تفسيره المنار (٢٤٦/٨)** طرفاً من هذا بقوله ـ رحمه الله ـ : «إنّ بعض القرويين في زماننا جاء إحدى المدن مرة فرأى الناس مجتمعين للاحتفال بِوَالٍ جديد جاء من دار السَّلطنة، فرغب أن يرى

وإذا تقرَّر هذا ، فإنَّ نوحاً ـعليه السلامـ بقوله : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾ يَسْتَفْهِمُهُم ، و«والاستفهام هنا بمعنى التقرير والتوبيخ، وعَجَبُهم الذي وقع إنما كان على جهة الاستبعاد والاستحالة ، هذا هو الظَّاهر مِن قصتهم»[١٣٢] .

قال الشيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ : «أي : كيف تعجَّبون من أمر لا يُتَعَجَّب منه، وهو أنَّ الله أرسل إليكم رجلاً منكم تعرفون أمره، يُذَكِّرَكم بما فيه مصالحكم، ويَحُثُّكم على ما فيه النفع لكم، فتعجَّبتم من ذلك تعجُّب المُنكِرين»[١٣٣] . مع أنَّ قوم نوح ـعليه السلامـ لم يكونوا في عجبهم ذاك مدعومين بحجة ، ولا مؤيّدين فيه ببرهان، وشبهتهم تلك «باطلة بالبداهة ؛ لأنها تقييد لمشيئة المُرْسِل وقدرته ، وهو الفعال لمّا يريد ﴿ تَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [البقرة:١٠٥،وآل عمران:٧٤] . وقد كان أولئك المُشْتَبِهُونَ مؤمنين بقدرته التامة، ومشيئته العامة»[١٣٤] . ولو أنصف أولئك القوم في خصامهم الأنبياء ، لعلموا يقيناً أنَّ «كون الرّسول إلى البشر بشراً مثلهم يفهمون أقواله ، ويتأسون بأفعاله هو المعقول الذي تقتضيه الفطرة ، وطبيعة الاجتماع ، ولكنَّ الأوهام الجهلية تقلب الحقائق وتعكس القضايا»[١٣٥] .

قال الفخر الرَّواي ـ رحمه الله ـ : «قوله : ﴿ مِّنكُمْ ﴾، أي : تعرفون نَسَبَه ، فهو منكم نَسَباً ، وذلك لأنّ كونه منهم يزيل التعجّب؛ لأن المرء بمن هو من جنسه أعرف ، وبطهارة أحواله أعلم، وبما يقتضي السُّكون إليه أبصر»[١٣٦] .

وقال الشَّيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ وهو يسوق بعض فوائد تلك الآية:«الخامسة عشرة: تعريفهم أن هذا الذي استغربوا ونسبوا مَن قاله إلى الجهالة والجنون هو الواجب في العقل؛ وهو أيضاً حظّهم ونصيبهم من الله؛ لأنه سبب الرَّحمة. ففي هذا الكلام من أوله إلى آخره من تحقيق الحق، وذكر أدلته العقلية على تحقيقه، وإبطال الباطل، وذكر الأدلة العقلية على بطلانه، ما لا يخفى على من له بصيرة»[١٣٧] .

وقال الشَّيخ المراغي ـ رحمه الله ـ : «وفى قوله : ﴿ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾، بيان لشبهتهم على الرِّسالة ، وهى أنَّ الرسول بشر مثلهم ، فكأنهم كانوا يرون أن الاشتراك فى البشرية والصِّفات العامة، يقتضى التساوي فى جميع الخصائص والمزايا ، ويمنع الانفراد بشيء منها . والمشاهدة أكبر برهان على بطلان هذه القضية، فالتفاوت فى الغرائز ، والصِّفات الفاضلة ، والاختلاف فى القَوى العقلية والمعارف والأعمال الكسبية ، جِدُّ عظيم فى البشر، وليس فى الأنواع الأخرى ما يشبه الإنسان فى ذلك . إلا أنه لو فُرِض التساوي بينهم، فهل هذا يمنع أن يختص الله بعض عباده بما هو فوق المعهود فى الغرائز والمكتسب بالتعلم؟ . كلاَّ، إنه ـ تعالى ـ قدير على ذلك، وقد قَضَت به مشيئته، ونَفَذَت به قدرته»[١٣٨] .

وإذاً فاختيار الحقّ ـ تعالى ـ لنوح ـعليه السلامـ من بين قومه اختيارٌ له حكمته، وله غايته ، وهو ـ عزّ شأنُهُ ـ العليم الحكيم «وما من عجب في هذا الاختيار ؛ فهذا الكائن الإنساني شأنه كله عجيب ؛ إنه يتعامل مع العوالم كلّها، ويتصل بربه بما ركَّب في طبيعته من نفخة الله فيه من روحه . فإذا اختار الله من بينه رسوله ـ والله أعلم حيث يجعل رسالته ـ ، فإنما يتلقَّى هذا المختار عنه، بما أودع في كيانه من إمكانية الاتصال به ، والتلقّي عنه، بذلك السِّر اللطيف الذي به معنى الإنسان، والذي هو مناط التكريم العلوي لهذا الكائن العجيب التكوين»[١٣٩] .

وبعد : ما مضى مُجْمَل ما أمكن الباحث تحصيله من لدن المفسّرين مما يتعلّق بذاك الجزء من الآية ، ولا يَبْعُدُ أن يكون العلاَّمة ابن عاشور قد نظر في تلك المقالات أو بعضها ، ومن ثَمَّ صاغها بتلك الصِّياغة، وأفاض عليها من معين بلاغته ، وحسن فَهمه ، ـ والعِلْم رحمٌ قديم أصيلٌ بين أهله ـ، غير أنه سبق منفرداً بجعل هذا الموطن من "جوامع الكَلِم"، وليس بمُدَافَع في ذلك ـ رحمه الله ـ .

بعينيه الوالي الذي أرسله السَّلطان إليهم، فلما مرَّ أمامه ، وقيل له هذا هو استغرب أن يكون إنساناً، وقال كلمة صارت مثلا ، **وهي** : حسبنا الوالي والياً فإذا هو إنسان ، أو رجل مثلنا. **وأخبرني محمود باشا الدامَاد** أن بعض فلاحي الأناضول يتخيَّلون أن خَلْقَ السُّلطان مخالف لخلق سائر الناس، وأن لحيته خضراء اللَّون . ولهذا الضَّعف في كثير مِن البشر يلبس بعض رجال الأديان أزياء خاصة مؤثرة، ويوفِّرون شعورهم ؛ لأجل استجلاب المهابة» .

(١٣١) تفسير المنار (٨/٢٤٦) .

(١٣٢) المحرر الوجيز (٢/٤١٦) .

(١٣٣) تيسير الكريم الرحمن (٢٩٤) .

(١٣٤) تفسير المنار (٨/٢٤٦) .

(١٣٥) تفسير المنار (٨/٢٤٦) .

(١٣٦) مفاتيح الغيب (١٤/٢٩٨).

(١٣٧) تفسير آيات من القرآن الكريم ، مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١/١٠٢) .

(١٣٨) تفسير المراغي (٨/١٩٠ـ١٩١) .

(١٣٩) في ظلال القرآن (٣/١٣٠٩ـ١٣١٠) .

المبحث الثالث : الآيات المنعوتة بـ"جوامع الكَلِم" عند العلامة ابن عاشور في الثلث الثاني من القرآن .

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : آيةُ سورة المؤمنون [١] ، وفيها : بيان أنَّ الفلاح غاية كلّ ساعٍ في عمله .

ذهب العلاَّمة مُحَمَّد الطَّاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ إلى القول عن آية سورة المؤمنون : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ﴾ بأنها من "جوامع الكَلِم"، حيث قال ما نصّـــه : «﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ﴾ افتتاحٌ بديعٌ ؛ لأنه مِن "جوامع الكَلِم"؛ فإنَّ الفلاح غاية كلّ ساعٍ إلى عمله ، فالإخبار بفلاح المؤمنين دون ذِكْر مُتَعَلِّق بفعل الفلاح يقتضي في المقام الخطابي تعميم ما به الفلاح المطلوب، فكأنه قيل: قد أفلح المؤمنون في كلّ ما رغبوا فيه. ولما كانت همّة المؤمنين منصرفة إلى تمكّن الإيمان والعمل الصالح من نفوسهم كان ذلك إعلاماً بأنهم نجحوا فيما تعلَّقت به همَمُهم من خير الآخرة ، وللحقّ من خير الدُّنيا، ويتضمن بشارةً برضى الله عنهم، وَوَعْدَاً بأنّ الله مكمِّلٌ لهم ما يتطلَّبونه من خير »[١٤٠].أ.هـ .

وهذا الموطن كسابِقِهِ في عِزَّةِ وجود مَن نصَّ على مثلما نصَّ عليه ابن عاشور ـ رحمه الله ـ من المفسرين قديماً وحديثاً. وإن كان البعض أتى بعبارات تُظْهِرُ قريباً مما قال .

فقد قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : «المفلحون : الذين أدركوا ما طلبوا، ونَجَوا مِن شرّ ما منه هَرَبُوا»[١٤١].وكلامه هذا فيه عموم ظاهر في بيان مَظَانِّ الفلاح.

وقال صاحب لطائف الإشارات ـ رحمه الله ـ : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ ﴾ ظَفِر بالبُغْيَة، وفاز بالطِّلْبَة من آمن بالله.و "الفَلاح": الفوز بالمطلوب، والظّفر بالمقصود»[١٤٢].

وقال ابن عطية ـ رحمه الله ـ : «أخبر الله ـ تعالى ـ عن فلاح المؤمنين، وأنهم نالوا البغية ، وأحرزوا البقاء الدائم»[١٤٣].

وقال البيضاوي ـ رحمه الله ـ : «﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ قد فازوا بأمانيهم»[١٤٤].

وقال أبو السُّعودي العمادي ـ رحمه الله ـ : «فالمعنى : قد فازوا بكلّ خيرٍ ونجوا من كلّ ضيرٍ حسبما كان ذلك متوقعاً من حالهم ، فإنَّ إيمانَهم وما تفرَّعَ عليه من أعمالهم الصالحةِ من دواعي الفلاح بموجب الوعدِ الكريم»[١٤٥].

وقال الشَّيخ الشَّنقيطي ـ رحمه الله ـ : « في هذه الآياتِ التي ابتدأَ بهَا أوّل هذه السُّورةِ علامات المؤمنينَ المفلِحين، فقال : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ ، أي : فـازُوا وظَفِـرُوا بخيرِ الدّنيا والآخرة»[١٤٦].

وقال الشَّيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ : «هذا تنويه من الله، بذكر عباده المؤمنين، وذكر فلاحهم وسعادتهم، وبأيّ شيءٍ وصلوا إلى ذلك، وفي ضمن ذلك، الحث على الاتصاف بصفاتهم، والترغيب فيها. فليزن العبد نفسه وغيره على هذه الآيات، يعرف بذلك ما معه وما مع غيره من الإيمان، زيادة ونقصاً، كثرة وقلة، فقوله : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾، أي : قد فازوا وسعدوا ونجحوا، وأدركوا كلّ ما يرام المؤمنون الذين آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين»[١٤٧].

وقد أشار بعضُ معاصري ابن عاشور إلى طرفٍ مما ذكره هذا الأخير، فقال: «إنه الوعد الصَّادق، بل القرار الأكيد بفلاح المؤمنين . وعد الله لا يخلف الله وعده، وقرار الله لا يملك أحدٌ ردّه . الفلاح في الدّنيا ، والفلاح في الآخرة . فلاح الفرد المؤمن ، وفلاح الجماعة المؤمنة . الفلاح الذي يحسه المؤمن بقلبه ، ويجد مصداقه في واقع حياته ، والذي يشمل ما يعرفه الناس من معاني الفلاح، وما لا يعرفونه مما يدَّخِره الله لعباده المؤمنين . فَمَن هم المؤمنون الذين كتب الله لهم هذه الوثيقة، ووعدهم هذا الوعد، وأعلن عن فلاحهم هذا الإعلان؟. من هم المؤمنون المكتوب لهم الخير والنصر والسَّعادة والتوفيق والمتاع الطيب في الأرض؟ . والمكتوب لهم الفوز والنجاة، والثواب والرّضوان في الآخرة؟. ثم ما شاء الله غير هذا وذلك في الدارين مما لا يعلمه إلا الله؟...»[١٤٨].

---

(١٤٠) التحرير والتنوير (٨/١٨) .

(١٤١) جامع البيان (٢٥٠/١) برقم (٢٩٤) ، والنكت والعيون (٤٥/٤) .

(١٤٢) لطائف الإشارات (٥٧٦/٢) .

(١٤٣) المحرر الوجيز (١٣٦/٤) .

(١٤٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٨٢/٤) .

(١٤٥) إرشاد العقل السَّليم (١٢٣/٦) .

(١٤٦) أضواء البيان (٣٠٥/٥) .

١٤٧) تيسير الكريم الرحمن (٥٤٧) .

(١٤٨) في ظلال القرآن (٢٤٥٣/٤) .

وابن عاشور - رحمه الله - وهو يقرّر كون تلك الآية الكريمة من "جوامع الكَلِم"، لا يغيب عنه توظيف مفرداتها كلّها في إثبات ذلك ، حيث يقول : «وأكَّد هذا الخبر بحرف "قد" الذي إذا دخل على الفعل الماضي أفاد التحقيق، أي : التوكيد، فحرف "قد" في الجملة الفعلية يُفيد مفاد "إنَّ واللاَّم" في الجملة الاسمية،أي: يُفيد توكيداً قوياً . ووجه التوكيد هنا : أنّ المؤمنين كانوا مؤمِّلين مثل هذه البشارة فيما سبق لهم من رجاء فلاحهم كالذي في قوله : ﴿ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج] ، فكانوا لا يعرفون تحقّق أنهم أتوا بما أرضى ربهم ، ويخافون أن يكونوا فرّطوا في أسبابه ، وما علّق عليه وَعْده إياهم، بَلْه أن يعرفوا اقتراب ذلك، فلما أُخْبِرُوا بأنَّ ما ترَجَّوه قد حصل، حقَّق لهم بحرف التحقيق، وبفعل المُضِيّ المستعمل في معنى التحقق . فالإتيان بحرف التحقيق ؛ لتنزيل ترقُّبهم إياه ؛ لفرط الرّغبة والانتظار منزلة الشكِّ في حصوله، ولعل منه : "قد قامت الصَّلاة"، إشارةً إلى رغبة المصلّين في حلول وقت الصَّلاة ... . وحذف المُتَعَلِّق ؛ للإشارة إلى أنهم أفلحوا فلاحاً كاملاً . والفَلاح : الظَّفر بالمطلوب من عمل العامل، وقد تقدم في أول البقرة. ونيطَ الفلاح بوصف الإيمان ؛ للإشارة إلى أنه السَّبب الأعظم في الفلاح ، فإنَّ الإيمان وصف جامع للكمال ؛ لتفرُّع جميع الكَمَالات عليه»[(١٤٩)].

وقد سبقه إلى طرفٍ مما قال : الفرّاء ، والزَّمخشري ، وأبو السُّعود[(١٥٠)].

قال الفرّاء - رحمه الله - : «"قد" ها هنا يجوز أن تكون تأكيداً لفلاح المؤمنين . ويجوز أن تكون تقريباً للماضي من الحال؛ لأنَّ "قد" تقرّب الماضي من الحال حتى تُلحقه بحكمه،ألا تراهم يقولون:قد قامت الصَّلاة، قبل حال قيامها، فيكون معنى الآية : إن الفلاح قد حصل لهم، وإنهم عليه في الحال»[(١٥١)].

وفي الكَشَّاف : «"قد" نقيضة "لَمَّا" هي تُثبِتُ المُتَوَقَّع ، و "لَمَّا" تنفيه، ولا شك أنَّ المؤمنين كانوا متوقِّعين لمثل هذه البشارة ، وهي الإخبار بثبات الفلاح لهم، فخُوطِبُوا بما دلَّ على ثبات ما توقَّعُوه . والفَلاح: الظفر بالمراد. وقيل : البقاء في الخير . وأفلح : دخل في الفلاح، كأبشر: دخل في البشارة . ويقال: أفلحه : أصاره إلى الفلاح»[(١٥٢)].

وبعد: فإنَّ ابن عاشور - رحمه الله - بجعل قوله - تعالى - : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ من "جوامع الكَلِم" قد أجاد، وأفاد، وسَبَق في ذلك، وانفرد أيضاً ، وبحقٍّ فإنّ تلك الآية لسورة "المؤمنون" افتتاحيةٌ بديعةٌ كما قال - رحمه الله - .

المطلب الثاني : آيةُ سورة القصص [٦٤] ، وفيها : عِدَّة معان يُفيدُها لفظُ الآية، وكلّها مقصودة .

ذهب العلاَّمة مُحَمَّد الطَّاهر بن عاشور - رحمه الله - إلى القول عن آية سورة القصص : ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ بأنها من "جوامع الكَلِم"،حيث أورد ما يلي : «﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ هذا موجَّهٌ إلى جميع الذين نُودُوا بقوله : ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [القصص] ، فإنَّ ذلك النداء كان توبيخاً لهم على اتخاذهم آلهةً شركاءَ لله - تعالى - .

فلمَّا شَعَرُوا بالمقصد من ندائهم ، وتَصَدَّى كبراؤهم للاعتذار عن اتخاذهم ، أُتبِعَ ذلك بهذا القول . وأسند فعل القول إلى المجهول ؛ لأنَّ الفاعل معلوم مما تقدم، أي : وقال الله . والأمر مستعملٌ في الإطماع؛ لتعقّب الإطماع باليأس. وإضافة الشُّركاء إلى ضمير المخاطبين؛ لأنهم الذين ادَّعَوا لهم الشِّرْكَة ، كما في آية [الأنعام:٩٤] : ﴿ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ۚ ﴾ . والدُّعاء دعاء الاستغاثة حسب زعمهم أنهم شفعاؤهم عند الله في الدّنيا . وقوله : ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ هو محل التأييس المقصود من الكلام . وأما قوله - تعالى - : ﴿ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ فيحتمل معاني كثيرة فرضها المفسّرون ، وجماع أقوالهم فيها أخذاً وَرَدّاً أن نجمعها في أربعة وجوه :

أحدها: أن يكون عطفاً على جملة : ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ .

والرؤية بصرية، والعذاب عذاب الآخرة، أي : أُحْضِر لهم آلة العذاب؛ ليعلموا أنَّ شركاءهم لا يُغْنُونَ عنهم شيئاً. وعلى هذا تكون

---

(١٤٩) التحرير والتنوير (١٨/٨) .

(١٥٠) **انظر** : إرشاد العقل السَّليم (١٢٣/٦) .

(١٥١) الوسيط للواحدي (٢٨٤/٣). **ولم أجد هذا النقل في نسخة معاني القرآن المطبوعة التي بين يدي للفراء . وانظر** : زاد المسير (٢٥٥/٣)، وفتح القدير (٥٦٠/٣) .

(١٥٢) تفسير الزمخشري (١٧٤/٣) . **وانظر** : فتح القدير (٥٦٠/٣) .

جملة : ﴿ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴾ مستأنفة ابتدائية مستقلة عن جملة : ﴿ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ﴾ .

الثَّاني : أن تكون الواو للحال، والرؤية أيضاً بصرية، والعذاب عذاب الآخرة، أي : وقد رَأَوا العذابَ فارتَبَكُوا في الاهتداء إلى سبيل الخلاص ، فقيل لهم : ادْعُوا شركاءَكم ؛ لخلاصكم، وتكون جملة : ﴿ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴾ كذلك مستأنفة ابتدائية .

الثَّالث: أن تكون الرؤية علمية، وحذف المفعول الثاني؛ اختصاراً، والعذاب عذاب الآخرة . والمعنى: وعَلِمُوا العذاب حائقاً بهم، والواو للعطف، أو الحال . وجملة : ﴿ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً ، كأن سائلاً سأل : ماذا صنعوا حين تحقَّقوا أنهم مُعَذَّبون؟ . فأجيب : بأنهم لو أنهم كانوا يهتدون سبيلاً لَسَلَكُوه ، ولكنهم لا سبيل لهم إلى النجاة .

وعلى هذه الوجوه الثلاثة تكون ﴿ لَوۡ ﴾ حرف شرط ، وجوابها محذوفاً دلَّ عليه حذف مفعول ﴿ يَهۡتَدُونَ ﴾، أي : يهتدون خلاصاً أو سبيلاً. والتقدير : لتخلصوا منه .

وعلى الوجوه الثلاثة فَعِل ﴿ كَانُواْ ﴾ مزيد في الكلام ؛ لتوكيد خبر "أنَّ" ، أي : لو أنَّهم يهتدون اهتداءً مُتَمَكِّناً من نفوسهم، وفي ذلك إيماءٌ أنهم حينئذ لا قرارة لنفوسهم. وصيغة المضارع في ﴿ يَهۡتَدُونَ ﴾ دالةٌ على التجدُّد ، فالاهتداء منقطعٌ عنهم ، وهو كنايةٌ عن عدم الاهتداء من أصله .

الوجه الرَّابع : أن تكون "لو" للتمنّي المستعمل في التحسّر عليهم . والمراد: اهتداؤهم في حياتهم الدّنيا؛ كيلا يقعوا في هذا العذاب، وفعل "كانوا" حينئذ في موقعه الدّال على الاتصاف بالخبر في الماضي، وصيغة المضارع في "يهتدون"؛ لقصد تجدّد الهُدَى المُتَحَسَّر على فواته عنهم ، فإنّ الهُدَى لا ينفع صاحبه إلا إذا استمر إلى آخر حياته.

ووجه خامس عندي : أن يكون المرادُ بالعذاب عذابَ الدّنيا،والكلام على حذف مضاف تقديره : ورأوا آثار العذاب. والرؤية بصرية، أي: وهم رأوا العذاب في حياتهم، أي: رأوا آثار عذاب الأمم الذين كذَّبُوا الرُّسل، وهذا في معنى قوله ـ تعالى ـ في سورة [إبراهيم:٤٥] : ﴿ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ ﴾. وجملة : ﴿ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴾ شرطٌ جوابه محذوفٌ، دلَّ عليه: ﴿ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴾ ،أي : بالاتِّعاظ وبالاستدلال بحلول العذاب في الدُّنيا على أنَّ وراءه عذاباً أعظم منه، لاهتدوا فأقلعوا عن الشِّرك، وصَدَّقُوا النَّبيءَ ﷺ، وهذا؛ لأنه يفيد معنى زائداً على ما أفادته جملة : ﴿ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ ﴾ .

فهذه عدَّة معان يُفيدُها لفظُ الآية، وكلّها مقصودةٌ، فالآية من "جوامع الكَلِم"»[١٥٣] . أ.هـ .

تَناوَلَ ابنُ عاشور ـ رحمه الله ـ هذه الآية تناولاً مُوسَّعاً وعميقاً ، متخذّاً مما جاء عن سَلَفِه مِن المفسّرين ـ رحمهم الله ـ مُعْتَمَدَاً له في ذلك ، برغم أنَّ تناولَ أكثرهم إيَّاها كان دون تناول الظَّاهر . ولقد أتى ـ رحمه الله ـ بوجوه من التفسير مُحَقَّقة ، موظِّفاً بعضَ مفردات الآية الكريمة لذلك ،جاعلاً منها منطَلَقاً لفَهم صائبٍ بحسب تنوّع التفسيرات، مستعيناً في البدءِ بالسِّياق .

وممن تناول تفسير الآية بمحدودية الطَّبري ـ رحمه الله ـ ، حيث قال : «يقول ـ تعالى ذِكْرُهُ ـ﴿ وَقِيلَ ﴾ للمشركين بالله الآلهةَ والأندادَ في الدّنيا: ﴿ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ﴾ الذين كنتم تدعون من دون الله، ﴿ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ ﴾،يقول: فلم يجيبوهم، ﴿ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ﴾،يقول : وعاينوا العذاب، ﴿ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴾ ، يقول : فَوَدّوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا في الدُّنيا مهتدين للحقّ»[١٥٤].

وكذا فعل أبو إسحاق الزجّاج، وأبو اللَّيث السَّمرقندي، والواحدي، والبيضاوي، وابن كثير، والثَّعَالبي، والمراغي، وابن سَعْدي[١٥٥].

وممن توسَّع نوعاً ما بذكر بعض الأوجه التفسيريّة : أبو منصور الماتريدي ، والزَّمخشري، وابن عطية، والشَّوكاني[١٥٦].

قال الشَّوكاني ـ رحمه الله ـ : «﴿ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ﴾ ، أي: قيل للكفار من بني آدم هذا القول، والمعنى : استغيثوا بآلهتكم التي كنتم تعبدونهم من دون الله في الدّنيا ؛ لينصروكم ، ويدفعوا عنكم

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/١٦٠ـ١٦١) .

(١٥٣) جامع البيان (١٩/٦٠٦) تحقيق : شاكر .

(١٥٤) **انظر مرتِّباً** : معاني القرآن وإعرابه (٤/١٥١)، وبحر العلوم (٢/٦١٦)، والوسيط (٣/٤٠٥)، وأنوار التنزيل (٤/١٨٣)، وتفسير القرآن العظيم (٦/٢٢٥) ، والجواهر الحسان (٤/٢٧٩)،وتفسير المراغي (٢٠/٨٢ـ٨٣) ، وتيسير الكريم الرَّحمن (٦٢٢) .

(١٥٦) **انظر مرتِّباً** : تأويلات أهل السّنة (٨/١٨٧ـ١٨٨) ، والكشاف (٣/٤٢٦ـ٤٢٧) ، والمحرر الوجيز (٤/٢٩٤ـ٢٩٥)، وفتح القدير (٤/٢١٠) .

، ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ عند ذلك . ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ ، ولا نفعوهم بوجه من وجوه النفع . ﴿ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ﴾ ، أي : التّابع والمتبوع قد غشيهم، ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾. قال الزّجّاج : جواب "لو" محذوف . والمعنى : لو أنهم كانوا يهتدون لأنجاهم ذلك ، ولم يروا العذاب . وقيل المعنى : لو أنهم كانوا يهتدون ما دَعَوهُم . وقيل المعنى : لو أنهم كانوا يهتدون في الدُّنيا لعلموا أنَّ العذاب حق . وقيل المعنى : لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب . وقيل : قد آنَ لهم أن يهتدوا لو كانوا يهتدون، وقيل: غير ذلك. والأول أولى»[157].

وثمّة عَلَمَان اثنان من أرباب التفسير يغلب على الظنّ تأثّر الطّاهر بن عاشور بهما لدى تفسيره تلك الآية الكريمة ؛ إذِ استَوْعَبَا ما قيل فيها ، وهما : الفخر الرّازي،وأبو حيان الأندلسي، وإن كان هذا الأخير لم يرتض ما قرّرَه الفخر هنالك .

قال الفخر الرّازي ـ رحمه الله ـ : «وثانيها: قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾. والأقرب أن هذا على سبيل التقرير؛ لأنهم يعلمون أنه لا فائدة في دعائهم لهم، فالمراد أنهم لو دعوهم لم يوجد منهم إجابة في النصرة ، وأن العذاب ثابت فيهم، وكلُّ ذلك على وجه التوبيخ، وفي ذِكْره ردعٌ وزجرٌ في دار الدُّنيا . فأما قوله ـ تعالى ـ : ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ فكثيرٌ من المفسّرين زعموا أنَّ جواب "لو" محذوفٌ ، وذَكَروا فيه وجوهاً : أحدها: قال الضحاك ومقاتل : يعني المتبوع والتّابع يَرَونَ العذاب ، ولو أنهم كانوا يهتدون في الدُّنيا ما أبصروه في الآخرة . وثانيها : لو أنهم كانوا مهتدين في الدّنيا لعلموا أنَّ العذاب حق. وثالثها : وَدُّوا حين رأوا العذاب لو كانوا في الدُّنيا يهتدون . ورابعها : لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل لَدَفَعُوا به العذاب . وخامسها : قد آنَ لهم أن يَهتَدُوا لو أنهم كانوا يهتدون إذا رأوا العذاب. ويؤكّد ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الشُّعراء] . وعندي أنَّ الجواب غير محذوف ، وفي تقريره وجوهٌ :

أحدها: أنَّ الله ـ تعالى ـ إذا خاطبهم بقوله : ﴿ ٱدْعُوٓاْ شُرَكَآءَكُمْ ﴾ ، فههنا يشتدُّ الخوف عليهم ، ويلحقهم شيءٌ كالسَّدَر ـ أي : الذُّهول ـ، والدُّوار، ويصيرون بحيث لا يبصرون شيئاً ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ شيئاً ، أمَّا لمَّا صاروا من شدة الخوف بحيث لا يُبصِرون شيئاً ، لا جَرَمَ ما رأوا العذاب . وثانيها: أنه ـ تعالى ـ لَمَّا ذكر عن الشُّرَكاء ، وهي الأصنام أنهم لا يُجيبُونَ الذين دَعَوهُم ، قال في حقّهم : ﴿ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ ،أي : هذه الأصنام كانوا يُشَاهدون العذاب لو كانوا من الأحياء المهتدين ، ولكنها ليست كذلك ، فلا جَرَمَ ما رأت العذاب . فإن قيل قوله : ﴿ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ﴾ ضمير لا يليق إلا بالعقلاء ، فكيف يصح عودُه إلى الأصنام؟.

قلنا : هذا كقوله : ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ [الكهف:٥٢] ، وإنما ورد ذلك على حسب اعتقاد القوم ، فكذا هاهنا . وثالثها : أن يكون المراد من الرؤية رؤية القلب ، أي : والكفار علموا حقيقةً هذا العذاب في الدُّنيا لو كانوا يهتدون . وهذه الوجوه عندي خيرٌ من الوجوه المبنية على أن جواب "لو" محذوف ؛ فإنَّ ذلك يقتضي تفكيك النَّظم من الآية»[158].

وقد تعقَّبه أبو حيّان الأندلسي ـ رحمه الله ـ ، فقال : «والضَّمير في ﴿ وَرَأَوُاْ ﴾ ، قال الضحاك ومقاتل : هو للتابع والمتبوع ، وجواب "لو" محذوف ، والظَّاهر أن يُقَدَّر مما يدلّ عليه مما يليه ، أي : لو كانوا مؤمنين في الدّنيا، ما رأوا العذاب في الآخرة . وقيل : التقدير : لو كانوا مهتدين بوجه من وجوه الحيل، لدفعوا به العذاب . وقيل : لعلموا أنّ العذاب حق . وقيل : لتحيروا عند رؤيته من فظاعته، وإن لم يُعَذَّبُوا به . وقيل : ما كانوا في الدّنيا عابدين الأصنام .

وقال أبو عبد الله الرّازي : وعندي أنَّ الجواب غير محذوف ، وفي تقريره وجوه . [ثمَّ ساق الوجوه الثلاثة التي ذكرها الفخر الرازي آنفاً ، ثمَّ قال] : وقد أثنى على هذا الذي اختاره ، وليس بشيء ، لأنه بناه على أنَّ الضَّمير في ﴿ وَرَأَوُاْ ﴾ عائد على المدعوين، قال : وهم الأصنام.

والظَّاهر أنه عائد على الدَّاعين، كقوله : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ﴾ [البقرة:١٦٦] ، ولأنّ حمل "مهتدين" على الأحياء في غاية البعد، لأنَّ ما قَدَّره هو جواب ، ولا يَشْعر به أنه جواب ، إذ صار التقدير عنده : لو كانوا مِن الأحياء رأوا العذاب، لكنها ليست من

(١٥٧) فتح القدير (٤/٢١٠) .

(١٥٨) مفاتيح الغيب (٢٥/٩ـ١٠) .

الأحياء، فلا ترى العذاب. ألا ترى إلى قوله : فلا جَرَمَ ما رأت العذاب ؟» (١٥٩) .

وبعد: فَـأيّـاً مَا كان فإنّ ما ذهب إليه ابن عاشور ـ رحمه الله ـ مِن كون تلك الآية من "جوامع الكَلِم" لا ريب أنه الحقُّ ، لا سيما إذا تـمَّتْ مقارنة ما ذَكَرَه في تفسيرها مع صنيع غيره ممن تقدّمه .

المبحث الرابع : الآيات المنعوتة بـ"جوامع الكَلِم" عند العلامة ابن عاشور في الثلث الأخير من القرآن .

وفيه سبعة مطالب :

المطلب الأول : آيةُ سورة الرُّوم [٤١]، وفيها : وجوهٌ عديدة صالحة من الموعظة .

ذهب العلاَّمة مُحَمَّد الطَّاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ إلى القول عن آية سورة الرُّوم : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ بأنها مِن "جوامع كَلِم القرآن"، فقال : «﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ موقع هذه الآية ومعناها صالحٌ لعدَّة وجوهٍ من الموعظة،وهي من "جوامع كَلِم القرآن". والمقصد منها هو الموعظة بالحوادث ماضيها وحاضرها ؛ للإقلاع عن الإشراك ، وعن تكذيب الرَّسول ـ ﷺ ـ . فأمَّا موقعها : فيجوز أن تكون متصلة بقوله قبلها : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ... الآيات﴾ [٩] ، فلمَّا طُولِبُوا بالإقرار على ما رأوه من آثار الأمم الخالية، أو أنكر عليهم عدم النظر في تلك الآثار، أُتْبَعَ ذلك بما أدَّى إليه طريق الموعظة من قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ [٢٧] ،ومِن ذِكْر الإنذار بعذاب الآخرة، والتذكير بدلائل الوحدانية ، ونِعَم الله ـ تعالى ـ، وتفريع استحقاقه ـ تعالى ـ الشُّكر لذاته ولأجل إنعامه استحقاقاً مستقرّاً إدراكُه في الفطرة البشرية، وما تخلَّل ذلك من الإرشاد والموعظة ، عاد الكلامُ إلى التذكير بأنَّ ما حلَّ بالأمم الماضية من المصائب ماكان إلا بما كسبت أيديهم، أي : بأعمالهم، فيوشك أن يحلّ مثل ما حلّ بهم بالمخاطبين الذين كسبت أيديهم مثل ما كسبت أيدي أولئك . فموقع هذه الجملة على هذا الوجه موقع النتيجة من مجموع الاستدلال ، أو موقع الاستئناف البياني بتقدير سؤال عن سبب ما حَلَّ بأولئك الأمم .

ويجوز أن تقع هذه الآية مـوقع التَّكْمِلَة لقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم ... الآية﴾ [٣٣] ، فهي خبرٌ مستعملٌ في التنديم على ما حَلَّ بالمكذِّبين المخاطبين من ضُرٍّ؛ ليعلموا أنَّ ذلك عقابٌ من الله ـ تعالى ـ، فيقلعوا عنه؛ خشية أن يحيط بهم ما هو أشدّ منه ، كما يُؤذِنُ به قولُه عَقِبَ ذلك : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

فالإتيان بلفظ ﴿ ٱلنَّاسِ ﴾ في قوله : ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمار؛ لزيادة إيضاح المقصود، ومقتضى الظَّاهر أن يُقَال : "بما كسبت أيديهم". فالآية تشير إلى مصائب نزلت ببلاد المشركين ، وعَطَّلَتْ منافعها، ولعلها مما نشأ عن الحرب بين الرُّوم وفارس، وكان العرب منقسمين بين أنصار هؤلاء وأنصار أولئك، فكان مِن جَرَّاء ذلك أن انقطعت سبل الأسفار في البر والبحر ، فتعطَّلَت التجارة ، وقلَّتِ الأقوات بمكة والحجاز ، كما يقتضيه سَوقُ هذه الموعظة في هذه السورة المفتتحة بـ ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ ﴾ .

فموقع هذه الجملة على هذا الوجه موقع الاستئناف البياني لسبب مس الضر إياهم حتى لجأوا إلى الضراعة إلى الله، وما بينها وبين جملة: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ ﴾ [٣٣] إلى آخره اعتراض واستطراد تخلل في الاعتراض . ويجوز أن يكون موقعها موقع الاعتراض بين ذكر ابتهال الناس إلى الله إذا أحاط بهم ضُرٌّ ، ثم إعراضهم عن عبادته إذا أذاقهم منه رحمة ، وبين ذِكر ما حلَّ بالأمم الماضية اعتراضاً ينبئ أنّ الفساد الذي يظهر في العالم ما هو إلا من جَرَّاء اكتساب الناس ، وأنَّ لو استقاموا لكان حالهم على صلاح .

والفساد: سوء الحال، وهو ضد الصلاح، ودل قوله: ﴿ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ على أنه سوء الأحوال في ما ينتفع به الناس من خيرات الأرض برّها وبحرها .

ثم التعريف في الفساد : إمّا أن يكون تعريف العهد لفسادٍ معهودٍ لدى المخاطبين، وإما أن يكون تعريف الجنس الشامل لكلِّ فسادٍ ظهر في الأرض برّها وبحرها أنه فساد في أحوال البر والبحر، لا في أعمال الناس بدليل قوله : ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

وفساد البر يكون بفقدان منافعه ، وحدوث مضارّه، مثل حبس الأقوات من الزَّرع والثمار والكلأ، وفي مَوَتَان الحيوان الـمُنتَفَع به،

---

(١٥٩) البحر المحيط (٣١٩/٨) .

وفي انتقال الوحوش التي تُصَاد من جرَّاء قَحْط الأرض إلى أَرَضِينَ أخرى، وفي حدوث الجوائح من جراد ، وحشرات ، وأمراض. وفساد البحر كذلك يظهر في تعطيل منافعه من قِلّة الحيتان واللؤلؤ والمرجان، فقد كانا من أعظم موارد بلاد العرب ، وكثرة الزَّوابع الحائلة عن الأسفار في البحر، ونُضُوبِ مياه الأنهار ، وانحباس فيضانها الذي به يستقي الناس . وقيل : أُريدَ بالبرّ : البوادي، وأهل الغُمُور[١٦٠]، وبالبحر : المدن والقُرَى، وهو عن مجاهد وعكرمة . وقال : إنّ العرب تسمي الأمصار بحراً . قيل : ومنه قول سعد بن عبادة في شأن عبد الله بن أبي ابن سلول : «ولقد أجمع أهل هذه البحرة على أن يُتَوِّجُوه»[١٦١]. يعني بالبَحْرَة : مدينة يَثْرب . وفيه بعد . وكأن الذي دعا إلى سلوك هذا الوجه في إطلاق البحر أنه لم يعرف أنه حَدَث اختلالٌ في سير الناس في البحر، وقلّةٌ فيما يخرج منه . وقد ذَكَر أهل السِّير أن قريشاً أصيبوا بقحط ، وأكلوا الميتة والعظام، ولم يذكُروا أنهم تعطَّلَت أسفارهم في البحر ، ولا انقطعت عنهم حِيتان البحر، على أنهم ما كانوا يُعْرَفُونَ بالاقتيات من الحيتان . وعلى هذه الوجوه الثلاثة يكون الباء في قوله : ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ للعِوَض، أي : جزاء لهم بأعمالهم، كالباء في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى:٣٠] ، ويكون اللاّم في قوله : ﴿ لِيُذِيقَهُم ﴾ على حقيقة معنى التعليل . ويجوز أن يكون المراد بالفساد : الشِّرك ، قاله قتادة والسّدي ، فتكون هذه الآية متصلة بقوله : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ﴾ [الروم:٤٠]،فتكون الجملة إتماماً للاستدلال على وحدانية الله ـ تعالى ـ؛ تنبيهاً على أن الله خلق العالم سالماً من الإشراك ، وأن الإشراك ظهر بما كسبت أيدي الناس من صنيعهم. وهذا معنى قوله في الحديث القدسي في "صحيح مسلم":«إني خلقت عبادي حنفاء كلّهم، وأنهم أتتهم الشياطين فأجالتهم عن دينهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي... الحديث»[١٦٢]. فذكر البر والبحر ؛ لتعميم الجهات ، بمعنى : ظهر الفساد في جميع الأقطار الواقعة في البر ، والواقعة في الجزائر والشُّطوط، ويكون الباء في قوله : ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ للسَّببية، ويكون اللاّم في قوله: ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ ﴾ لام العاقبة، والمعنى: فأذقناهم بعض الذي عملوا، فجُعِلَت لام العاقبة في موضع الفاء،كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص:٨] ، أي : فأذقنا الذين أشركوا بعض ما استحقّوه من العذاب ؛ لشركهم.

ويجوز أن يكون المعنى : أنَّ الله ـ تعالى ـ خلق العالم على نظام محكم ملائم صالح للناس ، فأحدث الإنسان فيه أعمالاً سيئةً مفسدةً، فكانت وشائج لأمثالها :

وَهَلْ يُنبِتُ الخَطِّيُ إلا وَشِيجهُ[١٦٣] ..... .

فأخذ الاختلال يتطرق إلى نظام العالم ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ [التين: ٤ـ٦] ، وعلى هذا الوجه يكون محمل الباء ومحمل اللاّم مثل محملها على الوجه الرابع .

وأطلق الظهور على حدوث حادث لم يكن، فشّبه ذلك الحدوث بعد العدم بظهور الشيء الذي كان مختفياً . ومحمل صيغة فعل "ظهر" على حقيقتها من المضي يقتضي أنّ الفساد حصل وأنه ليس بمستقبل، فيكون إشارة إلى فسادٍ مُشَاهدٍ ، أو محقّق الوقوع بالأخبار المتواترة . وقد تُحْمَل صيغة الماضي على معنى توقع حصول الفساد، والإنذار به، فكأنه قد وقع على طريقة : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:١] . وأياً ما كان الفساد من معهود ، أو شامل، فالمقصود أنَّ حلوله بالناس بقدرة

---

(١٦٠) **الغَامِر من الأرض ضد العَامِر . انظر** : مختار الصحاح (٢٢٩) مادة "غمر" .

(١٦١) **جزء من خبر** طويل أتى في قصة عيادة النبيِّ ﷺ لسعد بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ أخرجه البخاري في صحيحه (٢١٤٣/٥) ح(٥٣٣٩)، و(٢٢٩٢/٥) ح(٥٨٥٤)، و(٢٣٠٧/٥) ح(٥٨٩٩)، تحقيق: البُغا .

(١٦٢) صحيح مسلم (٢١٩٧/٤) ح(٢٨٦٥) تحقيق: عبد الباقي، **من حديث عياض بن حمار المجاشعي** ـ رضي الله عنه ـ . **وثبت هنا** : «فاجتالتهم» ، **وعند ابن عاشور آنفاً** : «فأجالتهم» !.

(١٦٣) **صدر بيت لزهير بن أبي سُلْمَى المزني . وعجزه** : وتُغْرَسُ إلا في مَنَابِتِهِ النَّخْلُ . وهو في مدح هَرم بن سِنَان بن أبي حارثة، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المِرِّيَين بالكرم وشرف العنصر . **انظر** : وديوان زهير بن أبي سلمى (١١٥) .

الله، كما دل عليه قوله : ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ ﴾، وأن الله يقدّر أسبابه تقديراً خاصاً ؛ ليجازي مَن يغضب عليهم على سوء أفعالهم . وهو المراد بما كسبت أيديهم ؛ لأنّ إسناد الكسب إلى الأيدي جَرَى مجرى المثل في فعل الشر والسُّوء من الأعمال كلّها، دون خصوص ما يُعْمَل منها بالأيدي؛ لأنّ ما يكسبه الناس يكون بالجوارح الظاهرة كلّها، وبالحواس الباطنة من العقائد الضّالة والأدواء النفسية. و"بما" موصولة،وحذف العائد من الصّلة، وتقديره: بما كسبته أيدي الناس، أي : بسبب أعمالهم . وأعظم ما كسبته أيدي الناس من الأعمال السيئة: الإشراك ، وهو المقصود هنا ، وإن كان الحكم عاماً. ويُعْلَم أنّ مراتب ظهور الفساد حاصلة على مقادير ما كسبت أيدي الناس،قال رسول الله ﷺ وسئل : أي : الذّنب أعظم؟: «أن تدعو لله نداً وهو خلقك»(١٦٤)، وقال ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى:٣٠] ، وقال : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الجن] . ويجري حكم تعريف الناس على نحو ما يجري في تعريف الفساد من عهد أو عموم، فالمعهود هم المشركون ، وقد شاع في القرآن تغليب اسم الناس عليهم . والإذاقة : استعارةٌ مَكْنيّةٌ ، شبّه ما يصيبهم من الآلام فيحسّون بها بإصابة الطعام حاسة المطعم . ولمّا كان ما عملوه لا يصيبهم بعينه ، تعيّن أنّ بعض الذي عملوا أُطْلِقَ على جزاء العمل ، ولذلك فالبعضية تبعيض للجزاء، فالمراد بعض الجزاء على جميع العمل لا الجزاء على بعض العمل، أي : أنَّ ما يذيقهم مِن العذاب هو بعض ما يستحقونه . وفي هذا تهديدٌ إن لم يُقْلِعُوا عن مساوئ أعمالهم ، كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر:٤٥] ، ثم وراء ذلك عذاب الآخرة، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [طه] .

والعُدُول عن أن يقال : بعض أعمالهم إلى ﴿ بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ ﴾؛ للإيماء إلى ما في الموصول من قوة التعريف، أي : أعمالهم المعروفة عندهم المتقرر صدورها منهم . والرَّجاء المستفاد من "لعل" يشير إلى أنَّ ما ظهر من فسادٍ كافٍ لإقلاعهم عما هم اكتسبوه، وأنَّ حالهم حال مَن يُرْجَى رجوعُه ، فإن هم لم يرجِعُوا فقد تبين تمرّدهم ، وعدم إجداء الموعظة فيهم، وهذا كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [التوبة] .

والرُّجوع مستعارٌ للإقلاع عن المعاصي، كأنَّ الذي عصى ربه عبد أَبَقَ عن سيده، أو دابَّة قد أَبَدَتْ، ثم رجع . وفي الحديث : «الله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلاً وبه مَهْلَكَةٌ، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومةً ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ، حتى إذا اشتدّ عليه الحَرُّ والعَطَش ، أو ما شاء الله ، قال : أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة ، ثم رفع رأسه فإذا دابـــته عنده»(١٦٥) »(١٦٦). أ.هـ .

كان ابنُ عاشور ـ رحمه الله ـ دقيقاً في تَقْدِمَتِهِ ذِكْر سبب إطلاقه وصف "جوامع الكَلِم" على تلك الآية الكريمة، وحَصْرهُ ذلك في ثلاثة أمور : الموقع، والمعنى، والمقصد . وهو بطول نَفَسِه فيها يُعتبر منفرداً بذاك عن غيره من المفسّرين،سيّان في ذلك مَن تقدّمه، فضلاً عن معاصريه، أو مَن أتى بعده ـ رحمة الله عليهم أجمعين ـ .

على أنّه ـ رحمه الله ـ قد أفاد ممن قبله ، لكنه أحسن توظيف ما ساقوه مِن التفسير بالمأثور الوارد في الآية سواءً ما كان آتياً عن الصّحابة ﷺ ، أو التابعين ـ رحمهم الله ـ ، أو ذكر الآيات الأخرى المؤيدة للمعنى المذهوب إليه، أو توظيف الحديث النبوي كذلك،ومن ثَمَّ جَعْل تلك السّبيل مُنطَلَقاً للتفسير بالرَّأي بكلّ مظاهره المستعملة في الآية: مناسبات، ومعاني حروف، ودلالات ألفاظ، وإعراب ، ووجوه بلاغة ، وقوة تراكيب وبيان، واستدعاء نظائر، ولقد فعل جميع ما سبق بحسن فَهم ثاقب، وصياغة متينة ، وجَمْع بديع، وسَبْك رائق ، ولستَ تجده إلا عند ابن عاشور ـ رحمه الله ـ .

ولا يُغْمَطُ الأقدمون ـ رحمهم الله ـ حقّهم إبّان تناولهم للآية الكريمة، وفي سَوْق بعض صنيعهم عندها تجلية لذلك وبيان .

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ : «وأولى الأقوال في ذلك بالصَّواب أنَّ الله ـ تعالى ذِكْرُهُ ـ أخبر أنَّ الفساد قد ظهر في البرّ والبحر عند العرب في الأرض القِفَار، والبحر بحران : بحر ملح، وبحر عذب، فهما جميعاً عندهم بحر، ولم يخصص ـ جلّ ثناؤُهُ ـ الخبر عن ظهور ذلك في

---

(١٦٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/٢٥١٧) ح(٦٤٦٨) ، و(٦/٢٧٣٩) تحقيق: البُغا ، ومسلم في صحيحه (١/٩١) ح(١٤٢) تحقيق: عبد الباقي **كلاهما من حديث ابن مسعود** ﷺ .

(١٦٥) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٢٣٢٤) ح(٥٩٤٩) ، تحقيق: البُغا ، ومسلم في صحيحه (٤/٢١٠٣) ح(٢٧٤٤) تحقيق: عبد الباقي **كلاهما من حديث ابن مسعود** ﷺ .

(١٦٦) التحرير والتنوير (٢١/١٠٩ـ١١٣) .

بحر دون بحر، فذلك على ما وقع عليه اسم بحر عذباً كان أو ملحاً . إذا كان ذلك كذلك، دَخَلَ القرى التي على الأنهار والبحار .

فتأويل الكلام إذن إذ كان الأمر كما وصفت : ظهرت معاصي الله في كل مكان من برّ وبحر ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ ، أي : بذنوب الناس، وانتشر الظلم فيهما . وقوله : ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ ﴾ يقول ـ جل ثناؤه ـ : ليصيبهم بعقوبة بعض أعمالهم التي عملوا، ومعصيتهم التي عصوا . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ يقول : كي ينيبوا إلى الحقّ، ويرجعوا إلى التوبة، ويتركوا معاصي الله»[١٦٧] . وبعضه عند أبي إسحاق الزجَّاج[١٦٨]، وبنحوه عند ابن سعدي، وجمال الدين القاسمي[١٦٩] .

وبأوسع من ذلك عند أبي منصور الماتريدي حيث يقول : «وقوله : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ هذا يحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون قوله : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ ، وهو الشرك والكفر، ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ من الأمور التي كانوا يتعاطون من قطع الطريق، والسَّرق، والظلم، وأنواع أعمال السّوء التي يتعاطونها، ذاك هو سبب شركهم وكفرهم بالله، وبذلك كان شركهم وكفرهم ذلك كان يغطي قلوبهم؛ حتى لا تتجلى قلوبهم للإيمان؛ كقوله: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين] ، وكقوله : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ ... الآية﴾ [٧٧]،ونحوه،فإن كان هذا فهو على حقيقة تقديم الأيدي والكسب . والثاني : أن يكون ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ هو القحط، وقلة الأمطار ، والأنزال ، والضِيق، وقوله : ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ هو شركهم ، وكفرهم، وتعاطيهم ما لا يحل، أي : ذلك القحط، والضّيق ، وقلة الأنزال، والشّدائد لهم؛ لشركهم وكفرهم وأعمالهم التي اختاروها، ويكون ذكر كسب الأيدي على المجاز لا على الحقيقة؛ ولكن لمّا كان باليد يكتسب ، وباليد يُقَدِّم، ذكر اليد؛ كقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ [الحج:١٠] ، ولعله لم يقدّم شيئًا، لكنه ذَكَر أنه ظهر الشرك والكفر بحقيقة كسب الأيدي من أعمال السوء التي ذكرنا، ذلك كان يمنعهم عن الإيمان ، وكشف الغطاء عن قلوبهم .

وفي التأويل الآخر : الفساد الذي ظهر هو القحط ، وقلة الأمطار ، والأنزال، والضِيق . ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ : هو الشرْك، والكفر، وتعاطي ما لا يحل، لا على حقيقة كسب الأيدي؛ ولكن لِمَا ذكرنا . ثم اختلف في قوله : ﴿ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ : قَالَ بَعْضُهُمْ : البر: هو المفاوز التي لا ماء فيها، والبحر: القرى والأمصار. وقَالَ بَعْضُهُمْ : أما البَرّ : فأهل العَمُود[١٧٠]، والبحر : هم أهل القرى والرّيف. وقَالَ بَعْضُهُمْ : البر: قتل ابن آدم أخاه، والبحر: ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الكهف] .

وجائز أن يكون لا على حقيقة إرادة البر والبحر؛ ولكن على إرادة الأحوال نفسها، على ما ذكرنا من القحط والضيق وقلة الأنزال؛ بما كسبت أيدي الناس من الشِرك والكفر. ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ ﴾ ، وهو الشِرك، هذا أشبه . وعن الحسن قال : أفسدهم الله في بر الأرض وبحرها بأعمالهم الخبيثة؛ لعلهم يرجع مَن كان بعدهم ، ويتعِظون بهم . وقتادة يقول : لعل راجعًا يرجع، لعل تائبًا يتوب، لعل مستغيثًا يستغيث، وأصله: لكي يلزمهم الرُّجوع والتوبة عما عملوا، وينبهم عن ذلك كله . وقَالَ بَعْضُهُمْ : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ ، أي : أجدب البر ، وانقطعت مادة البحر؛بذنوب الناس»[١٧١] .

وبنحو هذا عند أبي اللّيث السَّمَرقندي، ومكي القيسي، والماوردي، والواحدي، وأبي المظفر السّمرقندي، والزّمخشري، والقاضي عبد الحق ابن عطية، والفخر الرّازي ، وأبي الفداء بن كثير[١٧٢] .

---

(١٦٧) جامع البيان (١٠٩/٢٠) تحقيق : شاكر .

(١٦٨) **انظر** : معاني القرآن وإعرابه (١٨٨/٤) .

(١٦٩) **انظر** : تيسير الكريم الرحمن (٦٤٣/١)، ومحاسن التأويل (١٨/٨) .

(١٧٠) **هكذا ورد في الأصل، والأقرب أن يكون "الغمور" كما ثبت عند آنفاً عند ابن عاشور .**

(١٧١) تأويلات أهل السنة (٢٨٣/٨ـ٢٨٤) .

(١٧٢) **انظر في كل ذلك** : بحر العلوم (١٥/٣)، والهداية إلى بلوغ النهاية (٥٦٩٤/٩ـ٥٦٩٦، ٥٦٩٥)، والنكت والعيون

وثمّة ملاحِظُ بديعةٌ لدى الإمام الشّوكاني ـ رحمه الله ـ يسوقها أثناء تناوله تفسير الآية الكريمة، إذ هو يرجّح بين الأقوال، كذا فإنه يستغرب بعض المذاهب المذكورة فيها . حيث يقول : «﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ بين ـ سبحانه ـ أنَّ الشرك والمعاصي سبب لظهور الفساد في العالم . واخْتُلِفَ في معنى ظهور الفساد المذكور : فقيل : هو القحط، وعدم النبات، ونقصان الرّزق، وكثرة الخوف، ونحو ذلك . وقال مجاهد وعكرمة: فساد البر: قتل ابن آدم أخاه، يعني: قتل قابيل لهابيل، وفي البحر: الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً . وليت شعري أيّ دليل دلها على هذا التخصيص البعيد والتعيين الغريب؟!؛ فإنَّ الآية نزلت على مُحَمَّد ﷺ . والتعريف في "الفساد" يدل على الجنس، فيعم كلّ فساد واقع في حيزي البر، والبحر. وقال السّدّي : الفساد : الشّرك، وهو أعظم الفساد . ويمكن أن يُقَال : إنّ الشّرك وإن كان الفرد الكامل في أنواع المعاصي، ولكن لا دليل على أنه المراد بخصوصه . وقيل: الفساد كساد الأسعار، وقلّة المعاش. وقيل : الفساد قطع السُّبل، والظُّلم . وقيل : غير ذلك مما هو تخصيص لا دليل عليه . والظاهر من الآية ظهور ما يصحّ إطلاق اسم الفساد عليه ، سواءً كان راجعاً إلى أفعال بني آدم من معاصيهم، واقترافهم السيئات وتقاطعهم، وتظالمهم، وتقاتلهم، أو راجعاً إلى ما هو من جهة الله ـ سبحانه ـ بسبب ذنوبهم، كالقحط، وكثرة الخوف، والمَوَتَان، ونقصان الزرائع، ونقصان الثمار . والبر والبحر : هما المعروفان المشهوران . وقيل البر: الفيافي، والبحر: القرى التي على ماء ، قاله عكرمة. والعرب تسمي الأمصار : البحار . قال مجاهد: البر: ما كان من المدن والقرى على غير نهر . والبحر: ما كان على شط نهر، والأول أولى. ويكون معنى البر: مدن البر، ومعنى البحر:مدن البحر، وما يتصل بالمدن من مزارعها ومراعيها، والباء في ﴿ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ للسّببية، و"ما" إمّا موصولة ، أو مصدرية . ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ ﴾ اللاَّم متعلقة بظهر، وهي لام العلة، أي : ليذيقهم عقاب بعض عملهم، أو جزاء بعض عملهم . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عما هم فيه من المعاصي، ويتوبون إلى الله»[173]. ولله درُّ الشّوكاني ـ رحمه الله ـ مِن مُفَسِّر ، فإنَّ كلامه في هذه الآية الكريمة أسهل تناولاً ، وأقرب أسلوباً .

ولزاماً أن يتأثّر المفسّر بعصره الذي يعيش فيه ، ويظهر هذا التأثّر في كتاباته المتناولة لتفسير كلام الله ـ تعالى ـ ، وقد بان هذا الاتجاه في صنيع الشيخ المراغي، ــ وهو معاصر لابن عاشور رحمها الله ــ عند تفسيره للآية موطن الدراسة ، وكيف أنه قد نحا بالآية لتشمل بعض المظاهر التي عَجَّ به عصره وقتئذٍ ، فهو يقول : «بعد أن ذَكَرَ أنَّ المشركين عبدوا مع الله سواه، وأشركوا به غيره، والشِّرك سبب الفساد، كما يرشد إلى ذلك قوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ ﴾ [الأنبياء:٢٢] ، أعقب ذلك ببيان أنَّ الناس قد انتهكوا حرمات الله، واجترحوا المعاصي، وفشا بينهم الظُّلم والطمع، وأكل القوى مال الضعيف، فَصَبَّ عليهم ربهم سوط عذابه، فكثرت الحروب، وافتنّ الناس فى أدوات التدمير والإهلاك، فمن غائصات البحار تهلك السُّفن الماخرة فيها . إلى طائرات قاذفات للحمم والموادّ المحرقة . إلى مدافع تحصد الناس حصداً . إلى دبابات سميكة الدروع تهدّ المدن هَدّاً .

وما الحرب القائمة الآن إلا مثال الوحشية الإنسانية، والمجازر البشرية التي سَلَّطَ اللهُ فيها العالم بعضه على بعض، فارتكب المظالم، واجترح المآثم، والإنسان فى كل عصر هو الإنسان . وكما أهلك الله الكافرين قبلهم بكفرهم وظلمهم، يهلك الناس بشؤم معاصيهم وفسادهم، فليجعلوا مَن سبقهم مثلاً لهم، ليتذكروا عقاب الله وشديد عذابه للمكذبين .

الإيضاح : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ، أي : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ ﴾ فى العالم بالحروب والغارات، والجيوش والطائرات، والسُّفن الحربية والغوَّاصات، ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ من الظُّلم ، وكثره المطامع، وانتهاك الحرمات، وعدم مراقبة الخلاَّق، وطرح الأديان وراء ظهورهم، ونسيان يوم الحساب، وأطلقت النفوس من عقالها، وعاثت فى الأرض فساداً ؛ إذ لا رقيب من وازع نفسى، ولا حسيب من دين يدفع عاديتها، ويمنع أذاها، فأذاقهم الله جزاء بعض ما عملوا من المعاصي والآثام.﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن غيهم، ويثوبون إلى رشدهم، ويتذكرون أن هناك يوماً يُحَاسَبُ الناس فيه على أعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فيخيّم العدل على المجتمع البشرى،

(٤/٣١٧ـ٣١٨)، والوسيط (٣/٤٣٥ـ٤٣٦)، وتفسير القرآن (٤/٢١٧)، والكشاف (٣/٤٨٢)، والمحرر الوجيز (٤/٣٤٠)، ومفاتيح الغيب (٢٥/١٠٥)، وتفسير القرآن العظيم (٦/٢٨٧ـ٢٨٨) .

(١٧٣) فتح القدير(٤/٢٦٣) .

ويُشْفِقُ القويّ على الضعيف، ويكون الناسُ سواسيةً في المرافق العامة، وحاجة المجتمع بقدر الطّاقة البشرية»(١٧٤).
وبعد : فمها ذَكَرَ أولئك الجِلّة ـ رحمهم الله ـ ، فيظلّ تناول العلامة الطاهر ـ رحمه الله ـ لتلك الآية تناولاً مميّزاً فريداً، يصدق عليه بحقٍّ أنه جلّى كونها مِن "جوامع الكَلِم" في أروع بيان ، وبأجزل عبارة .

المطلب الثّاني : آيةُ سورة الرُّوم [٤٤] ، وفيها : بيان ما لا يُحصى من المضارّ في الكفر على الكافر ، وأنه لا يَضُرُّ غيرَه ، مع تمام الإيجاز.
ذهب العلاّمة مُحَمَّد الطّاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ إلى القول عن جزء آية سورة الرُّوم : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ بأنها مِن "جوامع الكَلِم"، فقال : «﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ هذه الجملة تتنزل منزلة البيان لإجمال الجملة التي قبلها ، وهي: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾ [٤٣] ؛ إذ التثبيت على الدّين بعد ذكر ما أصاب المشركين من الفساد بسبب شركهم يتضمن تحقير شأنهم عند الرسول ـ ﷺ ـ والمؤمنين، فَبَيَّنَ ذلك بأنهم لا يضرُّون بكفرهم إلا أنفسهم، والذي يكشف هذا المعنى تقديم المسند في قوله: ﴿ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ ﴾ فإنه يفيد تخصيصه بالمسند إليه، أي : فكفره عليه لا عليك ، ولا على المؤمنين، ولهذا ابتُدِئَ بذكر حال مَن كفر ، ثمَّ ذكر بعده مَن عمل صالحاً . واقتضى حرف الاستعلاء أنَّ في الكفر تَبِعَةً وشِدَّةً وضُرَّاً على الكافر، لأنَّ "على" تقتضي ذلك في مثل هذا المقام،كما اقتضى اللاَّم في قوله : ﴿ فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ أنَّ لمجرورها نفعاً وغنماً، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ ﴾ [البقرة:٢٨٦] . وقال توبة ابن الحمير : وَقَدْ زَعَمَتْ لَيْلَى بأنِّيَ فَاجِرٌ & لِنَفْسِي تُقَاهَا أَوْ عَلَيْهَا فُجُورُهَا(١٧٥).

(١٧٤) تفسير المراغي (٥٤/٢١). **ويعني في بعض كلامه الحرب العالمية الثانية التي كانت دائرةً وقت تسطيره تفسيره** ـ رحمه الله ـ .

(١٧٥) **انظر :** الأمالي، لأبي علي القالي (١/ ٨٨ـ١٣١) .

وأفرد ضمير ﴿ كُفْرُهُۥ ﴾ ؛ رعياً للفظ "مَن". وهذا التركيب من "جوامع الكَلِم"؛ لدلالته على ما لا يحصى من المضارّ في الكفر على الكافر ، وأنه لا يضرّ غيره، مع تمام الإيجاز،وهو وعيدٌ؛ لأنه في معنى : مَن كَفَر فجزاؤهُ عقابُ الله ، فاكتفي عن التصريح بذلك ؛ اكتفاءً بدلالة "على" مِن قوله : ﴿ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ ﴾ ، وبمقابلة حالهم بحال ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾ بقوله : ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ ﴾»(١٧٦). أ.هـ .

قرّر ابن عاشور ـ رحمه الله ـ أنَّ قوله ـ تعالى ـ : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ ﴾ من "جوامع الكَلِم" القرآنية ، وعلّل ما ذهب إليه بكون هذا التركيب الآنف غايةٌ في الإيجاز مع جَمْعِهِ ما لا يُحصَى من المضارّ الحاصلة من الكفر ، والعائدة بأثرها على الكافر وحده دون سواه ، كما أنّ ذلك التركيب يحمل في طيّاته وعيداً؛ لأنّ معناه : مَن كفر فجزاؤه عقاب الله .
والحقُّ أنَّ في كلام الزّمخشري قبلُ مَبدَأ ما فَصَّلَهُ ابنُ عاشور هنا ، وإن كان كلامه في الكشّاف آتياً على اقتضاب ، ومما قاله : « ﴿ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ ﴾كلمةٌ جامعةٌ لِمَا لا غاية وراءه من المضار؛ لأنَّ مَن كان ضاره كفره، فقد أحاطت به كلّ مضرة .... . وتقديم الظّرف في الموضعين(١٧٧)؛ للدّلالة على أنَّ ضرر الكفر لا يعود إلا على الكافر لا يتعداه . ومنفعة الإيمان والعمل الصّالح ترجع إلى المؤمن لا

وتوبة هذا هو توبة بن الحمير الخفاجي صاحب ليلى الأخيلية.

(١٧٦) التحرير والتنوير (١١٦/٢١) .

(٣) **لم يرتض أبو حيّان الأندلسي** كون تقديم الظرف يفيد الاختصاص كما نحا إليه الزّمخشري ، وعنده أنّ تقديم الظّرف إنما هو للاهتمام لا للاختصاص . **قال أبو حيّان** ـ رحمه الله ـ : «وهو على طريقته في دعواه أن تقديم المفعول وما جرى مجراه يدل على الاختصاص، وأما على مذهبنا فيدل على الاهتمام، وأما ما يَدَّعيهِ من الاختصاص فمفهوم من آي كثيرة في القرآن منها: ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]» . البحر المحيط (٣٩٦/٨) .

تتجاوزه»[178]. وتابعه على هذا بنصّه جمال الدين القاسمي[179]. وبعض ذلك عند البيضاوي[180].

وثمّة بعضُ المفسّرين في كلامهم نوع إشارة محدودة لبعض ما ذهب إليه الطاهر .

قال ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ : «يقول ـ تعالى ذكره ـ: مَن كفر بالله فعليه أوزارُ كفره، وآثامُ جحوده نِعَمَ ربه»[181].

وقال أبو منصور الماتريدي ـ رحمه الله ـ : «وقوله : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ ، أي : مَن كفر فعليه كفرُهُ ، وعليه ضررُ كفرُه، ومَن آمن وعمل صالحًا، فله ثواب إيمانه، وله منفعة عمله؛ لأنه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إنما امتحنهم بأنواع ما امتحن لمنافع أنفسهم ولحاجتهم، لا لحاجة أو لمنفعة له»[182].

وقال ابن عطية ـ رحمه الله ـ : «ثم قسَّم الفريقين بأحكام تلحقهم من أعمال في الدنيا. ثم عبَّر عن "الكفر" بـ"عليه"، وهي تعطي الثقل والمشقَّة،وعن العمل الصَّالح باللاّم التي هي كلام الملك»[183].

وقال أبو حيّان الأندلسي ـ رحمه الله ـ : «ثم ذكر حالتي المُتَفَرِّقين : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ﴾،أي : جزاءُ كفره، وعبَّر عن حالة الكافر بـ"عليه"، وهي تدلُّ على الفعل والمشقة،وعن حال المؤمن بقوله : ﴿ فَلِأَنفُسِهِمْ ﴾، باللام التي هي لام الملك»[184].

وقال الشَّيخ الشَّعرواي ـ رحمه الله ـ : «كلمة "عَلَيْه" تفيدُ الدَّيْن والوِزْر»[185].

وبعد : فإنَّ العلامة ابن عاشور ـ رحمه الله ـ وإن كان مسبوقاً في هذا الموطن بكلام الزَّمخشري ، غير أنَّ تفصيل الطَّاهر هنا أظهر، وأشمل، وتوظيفه البَلاغَي أبينُ، ناهيك عن التنصيص على أنَّ هذا الموطن من "جوامع الكَلِم" .

المطلب الثالث : آيات سورة الصَّافات [١٨٠ـ١٨٢] ، وفيها : إيذانٌ بانتهاء السّورة على طريقة براعة الختم .

ذهب العلاَّمة مُحَمَّد الطَّاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ إلى القول عن آيات سورة الصَّافات : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ بأنها مِن "جوامع الكَلِم"، حيث قال : «﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ خطاب النبيء ـ ﷺ ـ تذييلاً لخطابه المبتدأ بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَٰتُ ... الآية﴾ [١٤٩] . فإنه خلاصة جامعة لِمَا حوته من تنزيه الله وتأييده رسله . وهذه الآية فَذْلَكَة[186] لِمَا احتوت عليه السُّورة من الأغراض جَمَعَتْ : تنزيه الله ، والثناء على الرّسل والملائكة ، وحمد الله على ما سبق ذِكْره من نعمةٍ على المسلمين من هُدَى ، ونصر ، وفوز بالنعيم المقيم . وهذه المقاصد الثلاثة هي أصول كمال النفوس في العاجل والآجل؛ لأنّ معرفة الله ـ تعالى ـ بما يليق به تنقذ النفس من الوقوع في مهاوي الجهالة المفضية إلى الضّلالة ، فسوء الحالة . وإنما يتمُّ ذلك بتنزيهه عما لا يليق به. فأشار قوله: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ ... إلخ﴾ إلى تنزيهه، وأشار وصف ﴿ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ إلى التوصيف بصفات الكمال؛ فإنّ العزّة تجمع الصفات النفسية وصفات المعاني والمعنوية ؛ لأنّ الرّبوبية هي كمال الاستغناء عن الغير . ولمَّا كانت النفوس ـ وإن تفاوتت في مراتب الكمال ـ لا تسلم من نقص أو حيرة كانت في حاجة إلى مرشدين يبلّغُونَها مراتب الكمال بإرشاد الله ـ تعالى ـ ، وذلك بواسطة الرُّسل إلى الناس ، وبواسطة المبلِّغين من الملائكة إلى الرُّسل . وكانت غاية ذلك هي بلوغ الكمال في الدّنيا ، والفوز بالنعيم الدائم في الآخرة . وتلك نعمة تستوجب على النَّاس حمد الله ـ تعالى ـ على ذلك ؛ لأنّ الحمد يقتضي اتصاف المحمود بالفضائل، وإنعامه بالفواضل، وأعظمها نعمة الهداية بواسطة الرّسل؛ فهم المُبَلِّغون إرشاد الله إلى الخلق . و﴿ رَبِّ ﴾ هنا بمعنى : مَالك . ومعنى كونه ـ تعالى ـ مالك العزّة : أنه منفردٌ بالعزّة الحقيقة ، وهي

---

(١٧٧) الكشاف (٤٨٣/٣) .

(١٧٨) **انظر** : محاسن التأويل(١٩/٨) .

(١٧٩) **انظر** : أنوار التنزيل (٢٠٨/٤) .

(١٨٠) جامع البيان (١١١/٢٠) تحقيق: شاكر .

(١٨١) تأويلات أهل السنة (٢٨٥/٨) .

(١٨٢) المحرر الوجيز (٣٤١/٤) .

(١٨٣) البحر المحيط (٣٩٦/٨) .

(١٨٤) تفسير الشعراوي (١١٤٨٨/١٨) .

(١٨٥) سبق الحديث عن "الفذلكة" عند أول موطن دراسةٍ في هذا البحث ، آخر سورة البقرة .

العزّة التي لا يَشُوبُها افتقار، فإضافة ﴿ رَبِّ ﴾ إلى ﴿ ٱلْعِزَّةِ ﴾ على معنى لام الاختصاص ، كما يقال : صاحب صِدْق، لمن اختص بالصِّدق ، وكان عَريقاً فيه . وفي الانتقال من الآيات السَّابقة إلى التسبيح والتسليم إيذانٌ بانتهاءِ السُّورة على طريقة براعة الختم مع كونها من "جوامع الكَلِم" »[١٨٧].

لعلَّ من العجيب إطلاق ابن عاشور ـ رحمه الله ـ وَصْف "جوامع الكَلِم" على ثلاث آيات متتابعاتٍ كما هو الحال في هذا الموطن، وإلا فغالب صنيعه أن يكون ذلك في جزء آية ، أو في آيةٍ فحسب . وهو هنا قـــد أفاد من "المناسبات" ، وختم السُّور بما يناسب جوّها العام، وسوق ما يُحقّق المقاصد العامة والأغراض الرئيسة من السّورة الكريمة.

وهو ـ رحمه الله ـ مسبوقٌ في هذا الموطن في الجُمْلة بصنيع مَن تقدّمه كأبي منصور الماتريدي، والزّمخشري، والفخر الرّازي ـ رحمهم الله ـ ، فجميعهم قد دَارُوا حيث استقرّ ابنُ عاشور ، مع اختلافهم بين مُفْصِح قريبٍ جداً ، وبيّن مجمل إلى حدٍّ ما، وإن كانوا لم ينصّوا حرفياً على ما نصّ عليه الطاهر هنا .

قال أبو منصور الماتريدي : «وقوله ـ ﷻ ـ : ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾، وهذه الأحرف الثلاثة جميع ما بيّنه من الحق على الخلق من التوحيد. وجميع ما عليهم من التفويض إليه في الأمور كلّها. وجميع ما عليهم من الثناء الحسن، والحمد له فيما أنعم عليهم ، وما ألزمهم من الثناء الحسن على جميع المرسلين . أما حرف التوحيد ، فهو قوله :﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ نَزَّهَ نفسَه وبَرَّأَهُ عن جميع ما قالت الملاحدة فيه مما لا يليق به من الولد والشَّريك والصَّاحبة وغير ذلك، فيُرْجَى أن يثاب قائل هذا ثواب كلّ واصف لله ـ ﷻ ـ بالبراءة له ، والتنزيه عن ذلك كلّه . وفي قوله ـ ﷻ ـ : ﴿ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ وصف بالعزة والقوة وتفويض الأمر إليه، فيُرْجَى أن يثاب قائل هذا ثواب كلّ واصف لله بالعز له والقوة . وأما الثناء الحسن على المرسلين ، فـهو قوله ـ ﷻ ـ : ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أمر الله ـ ﷻ ـ عباده أن يثنوا على المرسلين جملة ... . أما الثناء الحسن على الله بكلّ ما أنعم عليهم ، وأحسن إليهم ، فهو قوله ـ ﷻ ـ : ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ فيُرْجَى أن يثاب قائل هذا وتاليه على المعرفة به مما فيه ثواب جميع القائلين به والتالين، والله أعلم ... »[١٨٨].

غير أنّ الزّمخشري نصّ على كون هاتيك الآيات الثلاث "جوامع"،حيث قال : «﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ اشتملت السُّورة على ذِكْر ما قاله المشركون في الله، ونسبوا إليه مما هو منزَّهٌ عنه، وما عاناه المرسلون من جهتهم، وما خُوِّلُوهُ في العاقبة من النصرة عليهم، فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون، والتسليم على المرسلين، والحمد لله رب العالمين على ما قيَّضَ لهم من حسن العواقب، والغرض تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك، ولا يُخِلُّوا به، ولا يغفلوا عن مُضَمَّنَاتِ كتابه الكريم ، ومُودَعَاتِ قرآنه المجيد»[١٨٩].

ومثله الفخر الرّازي ، فقد جلّى معاني رائقة من تلك الآيات الثلاث ، حيث قـال : «ثم إنه ـ تعالى ـ خـتم السُّـورةَ بخاتمـةٍ شريفـــةٍ جامعـةٍ لكلّ المطالب العالية؛ وذلك لأنَّ أهم المهمات للعاقل معرفة أحوال ثلاثة : فأولها : معرفة إله العالم بقدر الطاقة البشرية، وأقصى ما يمكن عرفانه من صفات الله ـ تعالى ـ ثلاثة أنواع : أحدها: تنزيهه وتقديسه عن كلّ ما لا يليق بصفات الإلهية، وهو لفظة ﴿ سُبْحَـٰنَ محمَّد بن ناصر بن يحيى جَدُّه سُبْحَ ﴾. وثانيها: وصفه بكلّ ما يليق بصفات الإلهية، وهو قوله :﴿ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾، فإنّ الرُّبوبية إشارة إلى التربية ، وهي دالة على كمال الحكمة، والرَّحمة والعِزَّة إشارة إلى كمال القدرة . وثالثها: كونه منزَّهاً في الإلهية عن الشّريك والنظير، وقوله : ﴿ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ يدلّ على أنه القادر على جميع الحوادث ؛ لأنَّ الألف واللام في قوله : ﴿ ٱلْعِزَّةِ ﴾ تفيد الاستغراق ، وإذا كان الكلّ مُلْكاً له ومِلْكاً له لم يبق لغيره شيء ، فثبت أنَّ قوله : ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ كلمة محتوية على أقصى الدرجات، وأكمل النهايات في معرفة إله العالم .

---

(١٨٦) التحرير والتنوير (٢٣/١٩٩) .

(١٨٨) تأويلات أهل السنة (٨/٥٩٦) .

(١٨٩) الكشاف (٤/٦٩) .

والمهم الثاني من مهمات العاقل : أن يعرف أنه كيف ينبغي أن يعامل نفسه ، ويعامل الخلق في هذه الحياة الدنيوية . واعلم أن أكثر الخلق ناقصون ، ولا بدّ لهم من مُكَمِّل يكمِّلهم، ومرشد يرشدهم، وهاد يهديهم، وما ذاك إلا الأنبياء ـ عليهم الصّلاة والسّلام ـ، وبديهة الفطرة شاهدة بأنه يجب على الناقص الاقتداء بالكامل، فنبّه على هذا الحرف بقوله : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾؛ لأنّ هذا اللّفظ يدلّ على أنهم في الكمال اللائق بالبشر فَاقُوا غيرَهم، ولا جرم يجب على كلّ مَن سواهم الاقتداء بهم .

والمهم الثالث من مهمات العاقل : أن يعرف أنه كيف يكون حاله بعد الموت . واعلم أن معرفة هذه الحالة قبل الموت صعبة، فالاعتماد فيها على حرف واحد، وهو أنه إله العالم غنيٌّ رحيمٌ، والغنيُّ الرحيم لا يُعذِّب، فنبّه على هذا الحرف بقوله : ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾؛ وذلك لأنَّ استحقاق الحمد لا يحصل إلا بالإنعام العظيم، فبيَّن بهذا كونه مُنعِماً، وظاهرٌ كونه غنياً عن العالمين، ومَن هذا وصْفُهُ كان الغالب منه هو الرَّحمة والفضل والكرم، فكان هذا الحرف منبِّهاً على سلامة الحال بعد الموت، فظهر بما ذكرنا أنَّ هذه الخاتمة كالصَّدَفَة المحتوية على دُرَر أشرف من دَرَاري الكواكب ، ونسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ حسن الخاتمة ، والعافية في الدُّنيا والآخرة»[١٩٠] .

وفي كلام ابن كثير، وابن عادل الحنبلي ـ رحمهما الله ـ إشاراتٌ مقتضبةٌ[١٩١] .

ومِن معاصري ابن عاشور ، أو ممن أتى بعده مَن وقف مع هاتيك الآيات وقفة تأمّل وتدبّر، فعندهم أنَّ تلك «الآيات كما هو المتبادر جاءت مُعَقِّبَةً على ما انتهت إليه الآيات السَّابقة من إنذار الكفار، وخاتمةً لفصول المناظرة ، وخاتمة للسُّورة معاً .

وقوة هذه الخاتمة ملموسة نافذة، شأن كثير من خواتم حكاية مواقف الكفَّار ومشاهد مناظراتهم مع النبي ﷺ . وقد استهدفت فيما استهدفته توكيد الإنذار الرّباني،وإثارة الخوف في قلوب الكفار،وتطمين النبيّ ﷺ،والمؤمنين وتثبيتهم»[١٩٢] . «وهذه الآيات من الجوامع ، والكوامل ، ووقوعها في موقعها هذا ينادي بأنه كلامُ من له الكبرياءُ ، ومنه العزّة ـ ﷻ ـ ، وعَمَّ نواله»[١٩٣] .

قال الشَّيخ المراغي ـ رحمه الله ـ : «ثم خَتَمَ ـ سبحانه ـ السّورة بخاتمةٍ شريفةٍ جامعةٍ لتنزيهه ـ سبحانه وتعالى ـ عما لا يليق به مع وصف نفسه بصفات الكمال ومدحه للرُّسل الكرام ، فقال: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ ، أي : تنزيهاً لربك أيها الرّسول ربِّ القوةِ والغَلَبَةِ عما يصفه به هؤلاء المُفْتَرون من مشركي قريش ... . وأَمَنَة مِن الله للمرسلين الذين أرسلهم إلى أممهم من العذاب الأكبر ، ومِن أن ينالهم مكْروهٌ من قِبَلِهِ ـ تعالى ـ ، والحمد لله رب الثقلين الجن والإنس خالصاً له دون سواه ؛ لأنَّ كل نعمة لعباده فهي منه . وهذا تعليم من الله للمؤمنين أن يقولوا ذلك ، ولا يغفلوا عنه»[١٩٤] . وبنحوه عند صاحب الظّلال[١٩٥] .

وبعد : فإنَّ ما ذكره أولئك الجلّة ـ رحمهم الله ـ حول هاتيك الآيات الكريمات وإن كان لبعضه فضل السّبق الزَّمَني غير أنَّ صنيع العلامة ابن عاشور ـ رحمه الله ـ هنا أيضاً فيه نوع تميُّز ، وجميل تفرُّد من حيث توظيف "المناسبات" ، والرّبط بين أجزاء السّورة الكريمة مع جودة الصِّياغة ، وروعة السّبك، ناهيك عن سبق التنصيص! .

*****

المطلب الرابع: آية سورة عبس [١٧] ، وفيها : نهاية الإيجاز، وأرفع الجزالة، بأسلوب غليظ، دالٍّ على السّخط، بالغ حدَّ المَذَمَّة، جامع للمَلامَة، ولم يُسْمَع مثلُها قبلَها.

ذهب العلاَّمة مُحَمَّد الطَّاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ إلى القول عن جزء آية سورة عبس : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ بأنها مِن "جوامع الكَلِم القرآنية"، حيث قال : «وتعريف "الإنسان" يجوز أن يكون التعريف المسمّى تعريف الجنس ، فيفيد استغراق جميع أفراد الجنس، وهو استغراقٌ حقيقيٌّ، وقد يُرَاد به استغراق معظم الأفراد بحسب القرائن ، فتولّد بصيغة الاستغراق ادعاء لعدم الاعتداد بالقليل من الأفراد، ويُسَمَّى الاستغراق العرفي في اصطلاح علماء المعاني، ويُسَمَّى العام المراد به الخصوص في اصطلاح علماء الأصول، والقرينة هنا ما بيَّن به كفر الإنسان من قوله : ﴿ مِنْ

---

(١٩٠) مفاتيح الغيب (٣٦٤/٢٦) .

(١٩١) **انظر** : تفسير القرآن العظيم (٤١/٧)، واللُّباب علوم الكتاب (٣٦١/١٦) .

(١٩٢) التفسير الحديث (٢٣٨/٤) .

(١٩٣) التفسير الوسيط مجمع البحوث (٤٦٩ـ٤٧٠) .

(١٩٤) تفسير المراغي (٢٣/٩٢ـ٩٣) .

(١٩٥) **انظر** : في ظلال القرآن (٣٠٠٣/٥) .

أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ إلى قوله : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾،فيكون المراد من قوله : ﴿ ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾: المشركين المنكرين البعث، وعلى ذلك جملةٌ المفسِّرين؛ فإنّ معظم العرب يومئذ كافرون بالبعث . قال مجاهد : «ما كان في القرآن قتل الإنسان فإنّما عني به الكافر»[196] . والأحكام التي يُحْكم بها على الأجناس يُرادُ أنها غالبة على الجنس، فالاستغراق الذي يقتضيه تعريف لفظ الجنس المحكوم عليه استغراقٌ عرفي معناه : ثبوت الحكم للجنس على الجملة، فلا يقتضي اتصاف جميع الأفراد به، بل قد يخلو عنه بعض الأفراد ، وقد يخلو عنه المتصف به في بعض الأحيان، فقوله : ﴿ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ تعجيبٌ من كفر جنس الإنسان ،أو شدّة كفره ، وإن كان القليل منه غير كافر . فآلَ معنى : "الإنسان" إلى الكفّار من هذا الجنس ، وهم الغالب على نوع الإنسان . فغالب الناس كفروا بالله من أقدم عصور التاريخ ، وتفَشّى الكفر بين أفراد الإنسان، وانتصروا له، وناضَلُوا عنه . ولا أعجبَ مِن كُفْر مَن ألهوا أعجز الموجودات من حجارة وخشب، أو نَفَوا أن يكون لهم رب خلقهم ! .

ويجوز أن يكون تعريف "الإنسان" تعريف العهد لشخص معين من الإنسان ، يُعَيّنُه خبر سبب النزول، فقيل: أريد به أمية بن خلف، وكان ممن حواه المجلس الذي غشيه ابن أم مكتوم،وعندي أنَّ الأولى أن يكون أراد به الوليد بن المغيرة . وعن ابن عباس أن المراد عتبة بن أبي لهب، وذكر في ذلك قصة لا علاقة لها بخبر المجلس الذي غشيه ابن أم مكتوم، فتكون الجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً، والمناسبة ظاهرة . وجملة ﴿ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ تعليلٌ لإنشاء الدُّعاء عليه دعاء التحقير والتهديد . وهذا تعجيب من شدّة كفر هذا الإنسان . ومعنى شدّة الكفر : أن كفره شديدٌ كمًّا، وكيْفاً، ومتى؛ لأنه كَفَرَ بوحدانية الله، وبقدرته على إعادة خلق الأجسام بعد الفناء، وبإرساله الرّسول، وبالوحي إليه ـ ﷺ ـ، وأنه كُفْرٌ قَويٌّ ؛ لأنه اعتقادٌ قويٌّ لا يَقْبَلُ التزحزح، وأنه مستمرٌ لا يقلع عنه، مع تكرُّر التذكير ، والإنذار ، والتهديد . وهذه الجملة بلغت نهاية الإيجاز ، وأرفع الجزالة، بأسلوب غليظ دال على السّخط بالغ حدَّ المذمة، جامع للمَلامَة، ولم يُسْمَع مثلُهَا قبلَها ، فهي من "جوامع الكَلِم القرآنية" »[197] .

سَبَّق ابن عاشور ـ رحمه الله ـ حديثه عن تعليلِهِ جَعْل قوله : ﴿ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ من "جوامع الكَلِم القرآنية" بتجلية المراد بالإنسان من قوله : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾ ، وعَرضِهِ للأقوال الواردة في ذلك ، ومن ثَمَّ بيان المعنى الأسلوبي الآتي في قوله : ﴿ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ ، وخرَّجه على أنه تعجيبٌ ودعاءٌ،الأمر الذي وَطَّأ بصورةٍ ظاهرة لِدَرْج قوله : ﴿ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ في سِلْك "جوامع الكَلِم القرآنية" ، فَعَل ذلك بأبدع بيان، وأجزل عبارة، وأظهر تعليل .

على أنّه ـ رحمه الله ـ قد حَاكَى الزَّمخشري في بعض عباراته ، وإن لم يُصَرّح هذا الأخير بأنَّ هذا الموطن من "جوامع الكَلِم القرآنية"، ففي الكشّاف ما نصّه : «قتل الإنسان دعاءٌ عليه، وهي مِن أشنع دعواتهم ؛ لأنَّ القتل قُصَارَى شدائد الدُّنيا وفظائعها . و﴿ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ تعجُّبٌ من إفراطه في كفران نعمة الله، ولا ترى أسلوباً أغلظ منه، ولا أخشن مسَّاً، ولا أدلَّ على سخط، ولا أبعد شَوْطَاً في المذمَّة، مع تقارب طرفيه،ولا أجمَعَ لِلاَئِمَةٍ على قِصَر مَتْنِهِ»[198] . وتابعه على ذلك الفخر الرازي، والبيضاوي، والقاسمي[199] .

ومِن قبلِ الزّمخشري قد قال أبو منصور الماتريدي : «وقوله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾، أي : ما أقبح كفره ، وأوحشه، وأشنعه؛ لأنه عَلِمَ أنَّ جميع ما أُنعِمَ به من النعيم فمِن اللَّه ـ تعالى ـ، ثمّ هو لم يشكرْ نعمه، ولا أطاعه فيما دعاه إليه؛ بل وجَّه شكر نعَمِه إلى مَن لا ينفعه ولا يضرّه، وعند مَن لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني عنه شيئاً، وما هذا إلا غاية الفحش ، ونهاية القُبح . أو ما أوحش كفره وأقبحه ؛ بما سَوَّى بين الشّكور والكفور، وبين المفسد والمصلح، وبين الوليّ والعدو، والعقلُ يوجبُ التفرقة بينهما ، فهو بإنكاره البعث كابر عقله وعانده ، فما أشدَّ كفر مَن هذا وصْفُهُ . ثم قوله ـ تعالى ـ : ﴿ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ ، أي : أيّ شيء أكفره؟، فيكون في ذِكْره تعجيبٌ لمن آمن مِن الخلائق، وتذكيرٌ لهم عن سوءِ مَن هذا فِعلُهُ ، وسوءِ معاملته مع ربّه»[200] .

وكذا فعل البقاعي ـ رحمه الله ـ فقال : «.... عَقَّبَهُ بقوله ناعياً على مَن لم يَقبلْ بكلِّيَّتِهِ عليه داعياً بأعظم شدائد الدُّنيا التي هي القتل

---

(١٩٦) **أخرج ذلك عنه ابن جرير في جامع البيان (٢٢٢/٢٤)** تحقيق : شاكر .

(١٩٧) التحرير والتنوير (١٢١/٣٠) .

وللتوسّع في الأقوال الواردة في معنى : "قُتِل"، و"الإنسان"، **ومعنى** : "ما أكفره" **يُنظر** : النكت والعيون (٢٠٥/٦ـ٢٠٦) .

(١٩٨) الكشاف (٧٠٢/٤ـ٧٠٣) .

(١٩٩) **انظر** : مفاتيح الغيب (٥٧/٣١)، وأنوار التنزيل (٢٨٧/٥) ، ومحاسن التأويل (٤٠٧/٩) .

(٢٠٠) تأويلات أهل السنة (٤٢٣/١٠ـ٤٢٤) .

في صيغة الخبر ؛ لأنه أبلغ : ﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَـٰنُ ﴾ ، أي : هذا النوع الآنس بنفسه الناسي لربه ، المتكبر على غيره ، المعجب بشمائله التي أبدعها له خالقه، حَصَلَ قتلُهُ بلعنه وطرده، وفُرِغَ منه بأيسر سَعْيٍ وأسهله مِن كلِّ مَن يصحّ ذلك منه ؛ لأنه أسرع شيء إلى الفساد ؛ لأنه مبنيٌّ على النقائص إلا مَن عصم الله. ﴿ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴾ ، أي : ما أشدّ تغطيته للحق، وجحده له، وعناده فيه؛ لإنكاره البعث، وإشراكه بربه ، وغير ذلك من أمره، فهو دعاءٌ عليه بأشنع دعاءٍ ، وتعجيبٌ مِن إفراطه في سَتْرِ محاسن القرآن التي لا تَخْفَى على أحد ، ودلائله على القيامة ، وكلّ شيء لا يَسَعُ أحداً التَّغْبير في وجهِ شيءٍ منها ، وهذا الدعاءُ على وَجَازَتِهِ يدلُّ على سَخَطٍ عظيم، وذمٍّ بليغ، وهو وإن كان في مخصوص، فالعبرة بعمومه في كلِّ مَن كفر نعمةَ الله»[٢٠١].

ومِن معاصري الطاهر مَن قد حام حول الحِمى ـ على استحياء ـ كالشيخ المراغي ـ رحمه الله ـ[٢٠٢].

وإذاً فلعلّ ابن عاشور ـ رحمه الله ـ أفاد مِن كلام أولئك ـ رحمهم الله ـ قبلَه، وسَرَتْ إليه الفِكْرَة ، ومن ثَمَّ أضفى عليها من معين عقله وعلمه ، وحسن سبكه ، وقوّة ملكته اللُّغوية والبلاغية ما أخرجها في ذلك القالب الذي سبق ، لكنه تفرّد بدرج هذا الموضع في "جوامع الكَلِم القرآنية"، وأنه «لم يُسْمَع مثلُها قبلَها».

*****

المطلب الخامس: آية سورة الليل [٢١] ، وفيها: يندرج كلّ ما يرغب فيه الرَّاغبون.

ذهب العلاَّمة مُحَمَّد الطَّاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ إلى القول عن آية سورة اللَّيل : ﴿ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ بأنها مِن "جوامع الكَلِم"، حيث قال :«وقوله : ﴿ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴾ وعدٌ بالثواب الجزيل الذي يُرْضِي صاحبَه. وهذا تتميمٌ[٢٠٣] لقوله : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ لأنَّ ذلك ما أفاد إلا أنه ناجٍ من عذاب النار؛ لاقتضاء المقام الاقتصار على ذلك ؛ لقصد المقابلة مع قوله : ﴿ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١٥﴾ ﴾،فتمّم هنا بذكر ما أَعَدَّ له من الخيرات. وحرف "سوف" لتحقيق الوعد في المستقبل،كقوله : ﴿ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓ ﴾ [يوسف:٩٨] ، أي: يتغَلْغَل رضاه في أزمنة المستقبل المَدِيد. واللام لام الابتداء؛لتأكيد الخبر. وهذه من "جوامع الكَلِم"؛ لأنها يندرج تحتها كلُّ ما يرغب فيه الرَّاغبون»[٢٠٤].

سواء كان المَعْنِي بقوله : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ ، أم هو على العموم[٢٠٥] في كلّ

---

(٢٠١) نظم الدرر في تناسب الآي والسّور (٢٥٩/٢١) .

(٢٠٢) **انظر** : تفسير المراغي (٤٣/٣٠ـ٤٤) .

(٢٠٣) **التتميم** عند أبي هلال العَسْكَري: أن توفى المعنى حظه من الجودة، وتعطيه نصيبه من الصحة، ثم لا تغادر معنى يكون فيه تمامه إلا تورده، أو لفظا يكون فيه توكيده إلا تذكره . كتاب الصّناعتين (٤٣٤) . **والتتميم** عند الجُرْجَاني : أن يُؤتى فِي كَلَام لا يُوهم خلاف المقصُود بفضلة ؛ لنكتة كالمبالغة، **نحو قوله ـ** تعالى ـ : ﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [الإنسان: ٨] . **انظر:** التعريفات (٥١) .

(٢٠٤) التحرير والتنوير (٣٩٢/٣٠) .

(٢٠٥) **ذهب ابن مسعود، وابن عباس ، وعبد الله بن أبي أوفى، وعبد الله بن الزبير ـ رضي الله عنهم ـ ، وقتادة ، وسعيد بن المسيب ، والسّدي، وغيرهم إلى أنّ قوله :** ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ **أنها نزلت في أبي بكر الصّديق ـ رضي الله عنه ـ. قال الواحدي** : «في قول الجميع» . **وقال ابن عطية** : «ولم يختلف أهل التأويل أن المراد بـ﴿ ٱلۡأَتۡقَى ﴾ إلى آخر السَّورة أبو بكر الصّديق، **ثم هي تتناول كل من دخل في هذه الصفات»** . **وقال ابن الجوزي: «يعني**: أبا بكر الصّديق في قول جميع المفسّرين». **والآية عامّة، وتتناول كلّ مَن دخل في تلك الصّفات ، وأبو بكر الصّديق ـ رضي الله عنه ـ داخلٌ فيها دخولاً أولياً ، وقد ذكرَ ذلك ابن عطية آنفاً ، وابن كثير ، وابن عاشور ، وغيرهم . قال ابن كثير : «وقد ذكر غيرُ واحد من المفسّرين** أنَّ هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ، حتى إنَّ بعضهم حكى الإجماع من المفسّرين على ذلك، **ولا شك أنه داخل فيها ، وأولى الأمة بعمومها ، فإنَّ لفظها لفظ العموم، وهو قوله ـ** تعالى ـ : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ ﴾، **ولكنه مقدَّم الأمة، وسابقهم في جميع هذه الأوصاف** وسائر الأوصاف الحميدة؛ فإنه كان صدِّيقاً تقياً كريماً جواداً بذَّالاً لأمواله في طاعة مولاه ، ونصرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ». **وقال ابن عاشور: وقوله:** «﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ... الآية ﴾ اتفق أهل التأويل على أنّ أول مقصود بهذه الصِّلة أبو بكر الصّديق ـ رضي الله عنه ـ لَـمَّا أعتق بلالاً، **قال المشركون** : «ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليدٍ كانت لبلال عنده». وهو قولٌ مِن بهتانهم ـ يُعلِّلون به أنفسهم ؛ كراهيةً لأن يكون أبو بكر فَعَلَ

مَن بذل ماله متزكّياً، طارحاً به عن نفسه شحّها، لا رغبةً لمكافأة ، وليس ردّاً لجميل سابق ، فإنَّ ابن عاشور ـ رحمه الله ـ قد راعي العموم في قوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ ، وذلك في دخول كلّ مشتهيات النفوس ورغائبها في هذا الوعد السَّنِّي من لدن الحق ـ تعالى ـ .

وإلى مثل هذا المذهب نَحَا جملة من المفسّرين ـ وإن كانوا لم ينصُّوا على كون الآية من "جوامع الكَلِم" ـ،إذ فسّروا الآية على العموم كابن جرير،وأبي منصور الماتريدي، والقُشَيري، وأبي المظفّر السّمعاني، وابن كثير ، ونظام الدِّين النيسابوري، والبِقاعي، والكَوْرَاني، وأبي السُّعود ، وأبي الفداء حقي الخلوتي، ومُحَمَّد صديق خَان القَنُّوجي، والشّوكاني، والمراغي، وابن سعدي، وصاحب الظِّلال[٢٠٦].

قال الطبري ـ رحمه الله ـ : «وقوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ يقول : ولسوف يرضى هذا المُؤتي ماله في حقوق الله ـ ﷻ ـ يتزكى بما يثيبه الله في الآخرة عوضًا مما أتى في الدُّنيا في سبيله، إذا لَقِيَ ربه»[٢٠٧].

وقال الكوراني ـ رحمه الله ـ : «﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ بما تقرّ به عينه. وعدٌ جميلٌ، وفي إبهامه ما لا يخفى»[٢٠٨].

وقال أبو السعود ـ رحمه الله ـ : «﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ جوابُ قَسَمٍ مضمرٍ ، أيْ : وبالله لسوفَ يَرْضَى، وهو وعدٌ كريمٌ بنيلِ جميعَ ما يبتغيهِ على أكملِ الوجوهِ وأجملِها؛ إذْ بهِ يتحققُ الرِّضَا»[٢٠٩].

وقال الشيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ : «وهذه الآية وإن كانت متناولة لأبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ ، بل قد قيل إنها نزلت في سببه، فإنه ـ رضي الله عنه ـ ما لأحد عنده من نعمة تجزى، حتى ولا رسول الله ـ ﷺ ـ، إلا نعمة الرَّسول التي لا يمكن جزاؤها، وهي نعمة الدّعوة إلى دين الإسلام، وتعليم الهدى ودين الحق، فإنّ لله ورسوله المنة على كلّ أحد، منة لا يمكن لها جزاء ولا مقابلة، فإنها متناولةٌ لكلّ من اتصف بهذا الوصف الفاضل، فلم يبق لأحد عليه من الخَلْق نعمة تجزى، فبقيت أعماله خالصة لوجه الله ـ تعالى ـ . ولهذا قال: ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١ ﴾ هذا الأتقى بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والمثوبات، والحمد لله رب العالمين»[٢١٠].

وفي الظلال ما نصّه : «ثم ماذا؟ ، ماذا ينتظر هذا الأتقى، الذي يؤتي ماله تَطَهُّرًا، وابتغاءَ وجه ربه الأعلى؟. إن الجزاء الذي يطالعُ القرآن به الأرواح المؤمنة هنا عجيب ، ومفاجئ. وعلى غير المألوف . ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ إنه الرِّضَى ينسكبُ في قلب هذا الأتقى .

إنه الرِّضَى يغمر روحه . إنه الرِّضَى يفيض على جوارحه . إنه الرِّضَى يشيع في كيانه . إنه الرِّضَى يُنَدِّي حياته . ويا له من جزاء! ، ويا لها من نعمة كبرى! ، ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ يرضى بدينه ، ويرضى بربه، ويرضى بقدره، ويرضى بنصيبه، ويرضى بما يجد من سرَّاء وضرَّاء، ومن غنى وفقر، ومن يسر وعسر، ومن رخاء وشدة، يرضى فلا يقلق،ولا يضيق ، ولا يستعجل ، ولا يستثقل العبء، ولا يستبعد الغاية . إن هذا الرِّضَى جزاءٌ ، جزاءٌ أكبر من كلّ جزاء ، جزاءٌ يستحقه مَن يبذل له نفسه، وماله، مَن يعطي ليتزكَّى، ومَن يبذل ابتغاء وجه ربه الأعلى .

إنه جزاء لا يمنحه إلا الله. وهو يسكبه في القلوب التي تُخْلِصُ له، فلا ترى سواه أحداً. ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ يرضى وقد بذل الثمن . وقد أعطى ما أعطى . إنها مفاجأة في موضعها هذا . ولكنها المفاجأة المرتقبة لمن يبلغ ما بلغه الأتقى ، الذي يؤتي ماله يتزكى، وما

ذلك ؛ محبةً للمسلمين ـ، **فأنزل الله تكذيبهم بقوله** : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴾ **مراداً به بعض مَن شمِله عموم** : ﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾، **وهذا شبيه بذكر** بعض أفراد العام ، وهو لا يخصص للعموم، ولكن هذه لـمَّا كانت حالة غير كثيرة في أسباب إيتاء المال تعيَّن أنَ المراد بها حالة خاصة معروفة» .

انظر الروايات في ذلك والأقوال: جامع البيان (٤٧٩/٢٤ـ٤٨٠) تحقيق: شاكر، ولطائف الإشارات (٧٣٧/٣)، والوسيط (٥٠٥/٤)، والمحرر الوجيز (٤٩١/٥، ٤٩٢)، وزاد المسير (٤٥٥/٤)، والجامع لأحكام القرآن (٩٠/٢٠)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٠٩/٨)، والتحرير والتنوير (٣٩١/٣٠) .

(٢٠٦) **يُنظر على التوالي** : جامع البيان (٤٨٠/٢٤) تحقيق: شاكر، وتأويلات أهل السنة (٥٥٥/١٠)، ولطائف الإشارات (٧٣٨/٣)، وتفسير القرآن (٢٤١/٦)، وتفسير القرآن العظيم (٤٠٩/٨)، غرائب القرآن (٥١٢/٦)، ونظم الدرر (٩٦/٢٢ـ٩٧)، وغاية الأماني (٤٠١/١)، وإرشاد العقل السليم (١٦٨/٩) ط إحياء التراث ، وروح البيان (٤٥٢/١٠) ، وفتح البيان في مقاصد القرآن (٢٧٢/١٥)، وفتح القدير (٥٥٢/٥ـ٥٥٣)، وتفسير المراغي (١٨٠/٣٠)، وتيسير الكريم الرحمن (٩٢٦)، وفي ظلال القرآن (٣٩٢٣/٦ـ٣٩٢٤) .

(٢٠٧) جامع البيان (٤٨٠/٢٤) تحقيق: شاكر .

(٢٠٨) غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني (٤٠١/١) .

(٢٠٩) إرشاد العقل السليم (١٦٨/٩) .

(٢١٠) تيسير الكريم الرحمن (٩٢٦) .

لأحد عنده من نعمة تجزى، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى.. ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ ... »[٢١١].

وفي التفسير الوسيط : ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ هذا وعد من الله للأتقى بأنه ـ سبحانه ـ سينيله وسيعطيه كلّ ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجملها . وقيل : ولسوف يرضى الله عنه ؛ لأنّ رضا الله عن عبده، أكمل للعبد من رضاه عن ربه ـ ﷻ ـ»[٢١٢].

وبعد : فإنَّ ابن عاشور محقٌّ فيما ذهب إليه، ويبقى له فضل السّبق بالتنصيص على كون تلك الآية الكريمة من "جوامع الكَلِم" ، برغم أنَّ أولئك الجلّة من المفسّرين قد ذكروا أنه يدخل ضمنها كلّ ما يتحقق به رضا ذاك الأتقى عن ربه الكريم .

المطلب السّادس : آية سورة الشّرح [٧] ، وفيها : جملة كثيرة من المعاني .

ذهب العلاَّمة مُحَمَّد الطَّاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ إلى القول عن آية سورة الشَّرح : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ ﴾ بأنها مِن "جوامع الكَلِم القرآنية"، حيث قال : «ولم يذكر هنا متعلق ﴿ فَرَغْتَ ﴾ ، وسياق الكلام يقتضي أنه لازمُ أعمال يعلَمُهَا الرّسول ﷺ ، كما أنَّ مساق السُّورة في تيسير مصاعب الدَّعوة ، وما يَخُفُّ بها. فالمعنى : إذا أتممتَ عملاً من مهام الأعمال ، فأقبل على عمل آخر، بحيث يعمر أوقاته كلّها بالأعمال العظيمة ... . فالمقصود بالأمر هو ﴿ فَٱنصَبْ ﴾ . وأما قوله : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ فتمهيدٌ وإفادةٌ لإيلاء العمل بعمل آخر في تقرير الدِّين ، ونفع الأمة ، وهذا من صيغ الدِّلالة على تعاقب الأعمال . ومثله قول القائل : ما تأتيني من فلان صلة إلا أعقبتها أخرى . واختلفت أقوال المفسَّرين من السَّلف في تعيين المفروغ منه ، وإنما هو اختلافٌ في الأمثلة ، فَحَذْفُ المتعلق هنا ؛ لقصد العموم ، وهو عموم عُرفي لنوع من الأعمال التي دل عليها السِّياق ؛ ليشمل كلّ متعلق عمله مما هو مهم كما عَلِمْتَ ، وهو أعلم بتقديم بعض الأعمال على بعض، إذا لم يمكن اجتماع كثير منها بقدر الإمكان، كما أقر الله بأداء الصّلاة مع الشّغل بالجهاد بقوله : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ... إلى قوله : كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ۝١٣ ﴾ [النساء:١٠٢،١٠٣] . وهذا الحُكمُ ينسحب على كلّ عمل ممكن من أعماله الخاصة به، مثل : قيام اللَّيل، والجهاد عند تَقَوِّي المسلمين، وتدبير أمور الأمة . وتقديم ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ على ﴿ فَٱنصَبْ ﴾ ؛ للاهتمام بتعليق العمل بوقت الفراغ من غيره ؛ لتتعاقب الأعمال، وهذه الآية من "جوامع الكَلِم القرآنية"؛ لمَا احتوت عليهمن كثرة المعاني»[٢١٣].

قريب هذا الموطن من سابقه في أنهما حُمِلا على العموم في مُتَعَلَّقِهِمَا .

وفي قوله : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾ ذكر المفسّرون أقوالاً لهذا الأمر المفروغ منه، وكذا الآخر الذي يَنصَبُ له النبيُّ ﷺ بعد ذلكم الفراغ[٢١٤].

وجَنَح ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ إلى العموم فقد ساق ـ رحمه الله ـ جملةً من الأقوال في المراد بذلك عن السّلف ، وعقّبها بقوله : «وأولى الأقوال في ذلك بالصَّواب قول مَن قال : إن الله ـ تعالى ذِكْره ـ ، أمر نبيه أن يجعل فراغه من كلّ ما كان به مشتغلاً من أمر دنياه وآخرته، مما أدَّى له الشغل به، وأمره بالشُّغل به إلى النصب في عبادته، والاشتغال فيما قرّبه إليه، ومسألته حاجاته، ولم يخصِّص بذلك حالاً من أحوال فراغه دون حال، فسواء كلّ أحوال فراغه، من صلاة كان فراغه، أو جهاد، أو أمر دنياً كان به مشتغلاً

---

(٢١١) في ظلال القرآن (٦/٣٩٢٣ـ٣٩٢٤) ..

(٢١٢) التفسير الوسيط مجمع البحوث (١٠/١٩٤١) .

(٢١٣) التحرير والتنوير (٣٠/٤١٦ـ٤١٧) .

(٢١٤) **قيل** : إذا فرغت من الفرائض ، فانصب في قيام الليل، **قاله ابن مسعود** ـ ﷺ . **وقيل** : إذا فرغت من الصَّلاة ، فانصب في الدعاء، **قاله ابن عباس** ـ ﷺ ، **والضحاك، ومقاتل . وقيل** : فإذا فرغت من جهاد عدوّك ، فانصب لعبادة ربّك، **قاله الحسن وقتادة . وقيل** : فإذا فرغت من أمر دنياك ، فانصب في عمل آخرتك، **قاله مجاهد. وقيل** : فإذا فرغت من التشهد ، فادع لدنياك وآخرتك، **قاله الشّعبيّ والزّهريّ . وقيل** : إذا صح بدنك ، فاجعل صحتك نَصباً في العبادة، **ذكره عليّ بن أبي طلحة .**

وقيل: إذا فرغت من إبلاغ الرسالة ، فانصب لجهاد عدّوك. **ذكره الماوردي . انظر الروايات في ذلك** : تفسير ابن أبي حاتم (١٠/٣٤٤٦)، والنكت والعيون (٦/٢٩٨ـ٢٩٩)، وزاد المسير (٤/٤٦٢)، والدر المنثور (٨/٥٥١ـ٥٥٢). **وقد برَمَ أبو منصور الماتريدي** ـ رحمه الله ـ **من كثرة الأقوال المذكورة في الآية ، فساقها ، ثم عقّب بقوله** : «ويجب ألا نتكلف تفسير ما ذُكِرَ في هذه السورة من أولها إلى آخرها ؛ لأنه أمر بينه وبين ربه، وكان رسول اللَّه ـ ﷺ ـ يعلم ما أراد به فيما خاطبه من الجميع، وأنه فيم كان؟، وقد كان خصوصاً له، وليس شيئاً مما يجب علينا العمل به حتى يلزمنا التكلّف لاستخراج ذلك سوى الشّهادة على اللَّه ـ تعالى ـ؛ فكان الإمساك عنه أولى، وترك التكلّف فيه والاشتغال به أرفق وأسلم، واللَّه الموفق». تأويلات أهل السنة (١٠/٥٦٨ـ٥٦٩) .

لعموم الشرط في ذلك، من غير خصوص حال فراغ، دون حال أخرى»[٢١٥].

وتابعه على ذلك بمعناه الزّمخشري، والفخر الرّازي، وابن عطية ، والبغوي، وابن جُزي الكَلْبي، وأبو حيّان الأندلسي، والخازن، وابن كثير، والكوراني ، والمراغي، وابن سعدي، وصاحب الظّلال، وصاحب أضواء البيان، وصاحبة التفسير البياني للقرآن الكريم، والشيخ ابن عيثمين، والشيخ مُحَمَّد سيد طنطاوي، وأبو بكر الجزائري[٢١٦].

قال الفخر الرّازي ـ رحمه الله ـ : «وبالجملة فالمعنى أن يواصل بين بعض العبادات وبعض، وأن لا يخلي وقتاً من أوقاته منها، فإذا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى»[٢١٧].

وقال ابن عطية ـ رحمه الله ـ : «ثم أمر ـ تعالى ـ نبيه إذا فرغ من شغل من أشغال النبوة والعبادة أن ينصب في آخر، والنصب : التعب. فالمعنى : أن يَدْأَبَ على ما أُمِرَ به ولا يفتر»[٢١٨].

وقال ابن جُزَي ـ رحمه الله ـ : «والمعنى : إذا فرغت من أمر فاجتهد في آخر »[٢١٩].

وقال المراغي ـ رحمه الله ـ : «وبعد أن بيَّن نعمه على رسوله، ووعده بتفريج كربه ، طلب منه أن يقوم بشكر هذه النعم بالانقطاع لصالح العمل ، والاتكال عليه دون مَن عداه، فقال : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾ ، أي : فإذا فرغت من عمل ، فاتعب فى مزاولة عمل آخر، فإنك ستجد فى المثابرة لذة تقرّبها عينك ، ويثلج لها صدرك»[٢٢٠].

وفي الظّلال ما نصّه : «فإذا فرغت من شغلك مع الناس ، ومع الأرض، ومع شواغل الحياة. إذا فرغت من هذا كلّه فتوجه بقلبك كلّه إذن إلى ما يستحق أن تنصب فيه ، وتكد ، وتجهد العبادة ، والتجرد ، والتطلع ، والتوجّه»[٢٢١].

وقالت الدكتورة عائشة بنت الشّاطئ ـ رحمها الله ـ : «والآية لم تُحَدِّد مِمَّ يكون هذا الفراغ ، وفيم يكون النصب؛ إكتفاء بدلالة السّياق، وجرياً على مألوف البيان القرآني في السُّكوت عن التحديد في مقام الإطلاق»[٢٢٢].

وقال الشيخ مُحَمَّد سيد طنطاوي ـ رحمه الله ـ : «والنَّصَب: التعب والاجتهاد في تحصيل المطلوب. أى: فإذا فرغت ـ أيها الرَّسول الكريم ـ مِن عمل من الأعمال، فاجتهد في مزاولة عمل آخر من الأعمال التي تقربك من الله ـ تعالى ـ، كالصَّلاة، والتهجد، وقراءة القرآن الكريم. واجعل رغبتك في جميع أعمالك وعباداتك، من أجل إرضاء ربك،لا من أجل شيء آخر، فهو وحده القادر على إبلاغك ما تريد، وتحقيق آمالك . فالمقصود بهاتين الآيتين حثه ـ ﷺ ـ ، وحث أتباعه في شخصه على استدامة العمل الصَّالح، وعدم الانقطاع عنه، مع إخلاص النية لله ـ تعالى ـ، فإنَّ المواظبة على الأعمال الصَّالحة مع الإخلاص فيها، تؤدى إلى السَّعادة التي ليس بعدها سعادة»[٢٢٣].

وبعد : فإنَّ ابن عاشور في تنصيصه على كون الآية الكريمة من "جوامع الكَلِم" قد أصاب مفصل الحقيقة، فضلاً عن سبقه إلى ذلك ، وهو ينطلق مما انطلق منه الآخرون قديمهم وحاضرهم من حمل الآية على عمومها في دلالتها على الأفراد المنضوية تحتها .

المطلب السّابع : آيتي سورة الزّلزلة [٧ـ٨] ، وفيها : موعظةٌ جامعةٌ فاذَّةٌ .

ذهب العلاَّمة مُحَمَّد الطَّاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ إلى القول عن آيتي سورة الزّلزلة : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ بأنها مِن "جوامع الكَلِم "، حيث قال ما نصُّه : «﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ تفريعٌ على قوله : ﴿ لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦ ﴾ تفريع الفَذْلَكَة، انتقالاً للترغيب والترهيب بعد الفراغ من إثبات البعث والجزاء، والتفريعُ قاض بأن هذا يكون عقب ما يصدر الناس أشتاتاً .

---

(٢١٥) جامع البيان (٤٩٦/٢٤ـ٤٩٧) تحقيق: شاكر .

(٢١٦) **يُنظر على التوالي** : الكشاف (٧٧٢/٤) ، ومفاتيح الغيب (٢٠٩/٣٢)، والمحرر الوجيز (٤٩٧/٥)، وأنوار التنزيل (٣٢١/٥ـ٣٢٢)، والتسهيل لعلوم التنزيل (٤٩٣/٢)، والبحر المحيط (٥٠١/١٠)، ولباب التأويل (٤٤٣/٤)، وتفسير القرآن العظيم (٤١٨/٨)، وغاية الأماني (٤٠٨/١)، وتفسير المراغي (١٩١/٣٠)، وتيسير الكريم الرحمن (٩٢٩)، وفي ظلال القرآن (٣٩٣٠/٦)، وأضواء البيان (٥٧٨/٨ـ٥٧٩)، والتفسير البياني للقرآن الكريم (٧٤/١)، وتفسير جزء عمّ (٢٥٠/١ـ٢٥١)، والتفسير الوسيط (٤٤١/١٥)، وأيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (٥٨٩/٥) .

(٢١٧) مفاتيح الغيب (٢٠٩/٣٢) .

(٢١٨) المحرر الوجيز (٤٩٧/٥) .

(٢١٩) التسهيل لعلوم التنزيل (٤٩٣/٢) .

(٢٢٠) تفسير المراغي (١٩١/٣٠) .

(٢٢١) في ظلال القرآن (٣٩٣٠/٦) .

(٢٢٢) التفسير البياني للقرآن الكريم (٧٤/١) .

(٢٢٣) التفسير الوسيط (٤٤١/١٥) .

والمِثْقَال : ما يُعْرَف به ثقلُ الشَّيء، وهو ما يُقَدَّر به الوزن ، وهو كميزان زِنَةً ومعنى . والذرَّة : النملة الصغيرة في ابتداء حياتها. ومِثْقَال ذرة مَثَلٌ في أقلِّ القِلَّة ، وذلك للمؤمنين ظاهرٌ ، وبالنسبة إلى الكافرين فالمقصود ما عَمِلُوا مِن شرٍّ، وأمَّا بالنسبة إلى أعمالهم من الخير فهي كالعدم[٢٢٤]، فلا توصف بخير عند الله ؛ لأنَّ عمل الخير مشروط بالإيمان ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾ [النور:٣٩] . وإنما أُعيدَ قولُه : ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ ﴾ دون الاكتفاء بحرف العطف ؛ لتكون كلّ جملةٍ مستقلة الدّلالة على المراد ؛ لتختص كلُّ جملةٍ بغرضها من الترغيب أو الترهيب، فأهمية ذلك تقتضي التصريح والإطناب . وهذه الآيةُ معدودةٌ من "جوامع الكَلِم"، وقد وصفها النبيءُ ـ ﷺ ـ بالجامعة الفاذَّة ، ففي "الموطأ" أنَّ النبيءَ ـ ﷺ ـ قال : «الخيل لثلاثة ... الحديث». فسُئِلَ عن الحُمُر، فقال: «لم يَنزِل عليَّ فيها إلا هذه الآية الجَامِعَة الفَاذَّة : ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾»(٢٢٥). وعن عبد الله بن مسعود أنه قال : «هذه أحكم آية في القرآن»[٢٢٦]. وقال الحسن : «قدم صَعْصَعَة بن نَاجية جدُّ الفرزدق على النبيء ـ ﷺ ـ يستقرىء النبيء القرآن، فقرأ عليه هذه الآية، فقال صَعْصَعَة: حسبي، فقد انتهت الموعظةُ، لا أبالي أن لا ألّه في ذلك أجر؟، **قال**: «لا ؛ لأنه لم يقل قط رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»». المحرر الوجيز (٥/٥١١ـ٥١٢). والحديث عند مسلم في صحيحه(١/١٩٦)ح(٢١٤) تحقيق: عبد الباقي.

(٢٢٤) **اختلف المفسِّرون في المؤمن والكافر متى يرون جزاء أعمالهم : فقيل** : يَلْقَى ذلك في الآخرة ، مؤمناً كان أو كافراً ، لأنَّ الآخرة هي دار الجزاء . **وقيل : إن كان مؤمناً** رأى جزاء سيئاته في الدنيا ، وجزاء حسناته في الآخرة ، حتى يصير إليها وليس عليه سيئة . **وإن كان كافراً** رأى جزاء حسناته في الدنيا ، وجزاء سيئاته في الآخرة حتى يصير إليها وليس له حسنة، **قاله طاووس**.

انظر : النكت والعيون (٦/٣٢١ـ٣٢٢) . **قال مكي** ـ رحمه الله ـ : «**قال ابن عباس** : ليس مؤمن ولا كافر يعمل خيراً ولا شراً في الدنيا إلا أراه الله إياه . فأما المؤمن فيريه حسناته وسيئاته، فيغفر الله له سيئاته ويثيبه على حسناته . وأما الكافر فيرد حسناته ويعذبه على سيئاته . **وقال محمد بن كعب القرظي**: من يعمل مثقال ذرة من خير يره، هذا في الدنيا. يعني أن كل كافر يرى ثواب عمله الحسن في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير، ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ ، هذا في الدنيا، يعني أن كلّ مؤمن يرى عقوبة سيئاته في الدنيا في نفسه وأهله وماله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس عليه شيء . **وقال طاووس**: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴾ من أهل الأديان غير الإسلام، ما عمل منهم أحد مثقال ذرة من خير إلا كوفئ بها في الدنيا في بدنه وماله وأهله حتى يموت وما بقي له مثقال ذرة من خير. ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ **قال** : من المؤمنين قوم يكافأون في الدنيا بالمصيبة في أبدانهم وأموالهم وأهليهم حتى يموت أحدهم ما بقي عليه مثقال ذرة من شر، فهذا يجعل الآيتين في المجازاة في الدُّنيا». الهداية إلى بلوغ النهاية(١٢/٨٣٩٨، ٨٣٩٤). **وانظر أيضاً** : تأويلات أهل السنة (١٠/٥٩٨ـ٥٩٩) .

وقال ابن عطية ـ رحمه الله ـ : «**وقال ابن عباس وبعض المفسرين**: رؤية هذه الأعمال هي في الآخرة، وذلك لازم من لفظ السّورة وسردها، فيرى الخير كله من كان مؤمناً، والكافر لا يرى في الآخرة خيراً ؛ لأنَّ خيره قد عُجِّلَ له في الدنيا، وكذلك المؤمن أيضاً تُعَجَّل له سيئاته الصغار في دنياه في المصائب والأمراض ونحوها ، فيجيء من مجموع هذا أنَّ مَن عمل من المؤمنين مِثْقالَ ذَرَّةٍ من خير أو شر رآه، ويخرج من ذلك أن لا يرى الكافر خيراً في الآخرة. ومنه حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ، **قالت**: قلت يا رسول الله : أرأيت ما كان عبد الله بن جدعان يفعله من البر، وصلة الرحم، وإطعام الطعام،

(٢٢٥) أخرجه مالك في الموطأ (٣/٦٣٠) ح(١٦١٨) تحقيق : الأعظمي. وخرَّجه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة ـ ﷺ ـ (٣/٨٣٥) ح (٢٤٢٢)، و(٣/١٠٥٠) ح(٢٧٠٥)، و(٣/١٣٣٢) ح(٣٤٤٦)، و(٤/١٨٩٨) ح(٤٦٧٩)، و(٦/٢٦٧٧) ح(٦٩٢٣) تحقيق: البُغا .

(٢٢٦) أخرج عبد الرزاق في تفسيره (٣/٤٤٩) برقم (٣٦٧٣) **عن معمر بن راشد قال** : «وبلغني أن عمر بن الخطاب ـ ﷺ ـ مر به ركب ، فأرسل إليهم يسألهم مَن هم؟. **فقالوا** : جئنا من الفج العميق ، **فقال** : أين تريدون؟. **قالوا** : نؤم البيت العتيق ، **قال** : فرجع إليه الرَّسول فأخبره ، **فقال عمر** : إنّ لهؤلاء لنبأ، ثم أرسل إليهم: **أيُّ آيةٍ في كتاب الله أحكم؟** . **قالوا**: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾، **في سؤالات أُخرى ، وفي نهاية الخبر أنه] قال**: سلهم أفيهم ابنُ أم عبد؟. **قالوا**: نعم».

أسمع من القرآن غيرها»[٢٢٧]. وقال كعب الأحبار : «لقد أنزلَ اللهُ على محمدٍ آيتين أَحْصَتَا ما في التوراة والإنجيل والزَّبور والصُّحف : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾»[٢٢٨].

وإذ قد كان الكلام مَسُوقاً للترغيب والترهيب معاً أُوثِر جانب الترغيب بالتقدي في التقسيم ؛ تنويهاً بأهل الخير»[٢٢٩].

لعلَّ ابن عاشور ـ رحمه الله ـ اعتمدَ دَرْج تلك الآيتين في "جوامع الكَلِم" على الخبر المَروي عن النبيّ ﷺ آنفاً ، وفيه : «إلا هذه الآية الجَامِعَة الفاذَّة»، فالظنُّ أنَّ هذه الإضاءة من الأثر استوقفته فوظَّفها ، في حين أنَّ غيره من المفسِّرين ممن تناول تفسير هذه الآية الكريمة قديماً وحديثاً لم ينصّوا بحال على ذلك !.

ولقد تناولها المفسِّرون قريباً من تناول الظَّاهر لها،وهذا سَوْقٌ لأقوال جملةٍ منهم:

قال أبو إسحاق الزجاج ـ رحمه الله ـ: «ومعنى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ تأويله أن الله ـ جلَّ وعزَّ ـ قد أحصى أعمال العباد من خَيرٍ، وكلٌّ يرى عمله، فمَن أَحَبَّ اللَّه أن يغفر له غَفَر له، ومن أحبَّ أَنْ يُجَازِيَه جَازَاهُ»[٢٣٠].

وقال أبو منصور الماتريدي ـ رحمه الله ـ : «أي : فمَن يعمل في الدُّنيا وزن ذَرَّةٍ مِن خير يرى ثوابه في الآخرة . ومَن يعمل في الدُّنيا وزن ذَرَّةٍ مِن شرٍّ يرى جزاءه في الآخرة»[٢٣١].

وقال ابن عطية ـ رحمه الله ـ : «ثم أخبر ـ تعالى ـ أنه من عمل عملاً رآه قليلاً كان أو كثيراً، فخرجت العبارة عن ذلك بمثال التقليل، وهذا هو الذي يسميه أهل الكلام مفهوم الخطاب، وهو أن يكون المذكور والمسكوت عنه في حكم واحد»[٢٣٢].

وقال ابن جُزي الكلبي ـ رحمه الله ـ : «وذِكْرُ اللهِ مثقال الذرّة ؛ تنبيهاً على ما هو أكثر منه من طريق الأولى، كأنه قال: مَن يعمل قليلاً أو كثيراً، وهذه الآية هي في المؤمنين؛ لأنَّ الكافر لا يجازى في الآخرة على حسناته ؛ إذْ لم تقبل منه . ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ هذا على عمومه في حق الكافر، وأمَّا المؤمنون فلا يُجَازَونَ بذنوبهم إلا بستة شروط : وهي أن تكون ذنوبهم كبائر، وأن يموتوا قبل التوبة منها، وأن لا تكون لهم حسنات أرجح في الميزان منها، وأن لا يُشْفَع فيهم ، وأن لا يكون ممن استحق المغفرة بعمل كأهل بدر، وأن لا يعفو الله عنهم ؛ فإنَّ المؤمن العاصي في مشيئة الله إن شاء عذّبه وإن شاء غفر له»[٢٣٣]. وبنحوه عند أبي حيّان الأندلسي[٢٣٤].

وقال الشيخ المراغي ـ رحمه الله ـ : «﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ ، أي : فَمن يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره فإنه يجد جزاءه، ومَن يعمل الشرّ ولو قليلاً يجد جزاءه، لا فرق بين المؤمن والكافر. وحسنات الكافرين لا تخلصهم من عذاب الكفر فهم به خالدون فى الشقاء»[٢٣٥].

وقال الشيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ : «﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ وهذا شاملٌ عامٌ للخير والشرّ كلّه ؛ لأنه إذا رأى مثقال الذرّة، التي هي أحقر الأشياء، وجُوزيَ عليها ، فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ ﴾ [آل عمران:٣٠] ، ﴿ وَوَجَدُواْ

---

(٢٢٧) **أخرجه بنحوه عبد الرزّاق في تفسيره** (٤٤٨/٣) برقم (٣٦٦٩)، وبنصّه عند أحمد في مسنده (٢٠٠/٣٤)، برقم (٢٠٥٩٣) ط الرسالة ، وقال محقّقه شعيب الأرناؤوط : «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين»، وبنصّه أخرجه الواحدي بسنده في تفسيره الوسيط (٥٤٣/٤) برقم (١٤٢٤)، والسُّيوطي في الدر المنثور(٥٩٥/٨).

(٢٢٨) ذكره القرطبي في تفسيره (١٥٢/٢٠)، وابن عادل في اللباب في علوم الكتاب (٤٥٣/٢٠) .

(٢٢٩) التحرير والتنوير (٤٩٤/٣٠ـ٤٩٥) .

(٢٣٠) معاني القرآن وإعرابه (٣٥٢/٥). **وكلامه هذا متوجّه في حقّ المؤمن، أما الكافر فليس بداخل في ذلك ؛ لِمَا سبق.**

(٢٣١) تأويلات أهل السنة (٥٩٨/١٠) .

(٢٣٢) المحرر الوجيز (٥١١/٥) .

(٢٣٣) التسهيل لعلوم التنزيل (٥٠٤/٢) .

(٢٣٤) البحر المحيط (٥٢٤/١٠) .

(٢٣٥) تفسير المراغي (٢٢٠/٣٠) .

﴿مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾[الكهف:٤٩] . وهذه الآية فيها غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلاً ، والترهيب من فعل الشر ولو حقيرًا»[٢٣٦] .

وفي الظّلال: «...،فهذه أو ما يشبهها من ثقل من خير أو شرّ تحضر ويراها صاحبها، ويجد جزاءها ، عندئذٍ لا يحقر الإنسانُ شيئاً من عمله ، خيراً كان أو شرّاً، ولا يقول: هذه صغيرة لا حساب لها ولا وزن، إنما يرتعش وجدانه أمام كلّ عمل من أعماله ارتعاشةَ ذلك الميزان الدّقيق الذي ترجح به الذرّة أو تَشيل ...»[٢٣٧] .

وبعد : فمها كثرتْ تلك النّقول السّالفة عن المفسّرين إلا أنها تُعْطي صورةً واضحةً عن إعْمالِهم ـ رحمهم الله ـ جانب العُموم في الآيتين ، غير أنَّ ابن عاشور ـ رحمه الله ـ يبقى مُنفَرِدَاً بتنصيصه على جَعْلِهِمَا مِن "جوامع الكَلِم" ، وهو تميُّزٌ يُحسَبُ له كعادته .

*****

الخاتمة :

وبعد هذه الدّراسةِ المتواضعة بان للباحث جملة من الأمور منها :

١. "جوامع الكَلِم" تكون في القرآن الكريم كما تكون في السنة المطهَّرة، وهي مِن معجزات النبيّ ﷺ ، فلقد أُوتِيَ "جوامع الكَلِم"، كما أتى الخبر بذلك ، والمراد بها في كتاب الله ـ تعالى ـ : آيات قلَّت ألفاظها، وكثرت معانيها .

٢. "جوامع الكَلِم" قائمةٌ على فنٍّ من فنون البلاغة ، ألا وهو بلاغة الإيجاز، وقد لحظ العلامة ابن عاشور ـ رحمه الله ـ هذا الدَّاعي، وأشار إليه في بعض مواطنه تلك المختارة .

٣. ثبوتُ دخول المفاضلة بين آيات الذِّكر الحكيم كما قرّره البحث ، وتَتَعَزَّزُ تلك المفاضلةُ لكل آيةٍ صَدَقَ عليها وصفُهَا بكونها من "جوامع الكَلِم".

٤. "جوامع الكَلِم" ـ سواء كانت من القرآن الكريم أو السّنة النبوية ـ ليست منحصرةً كلّها في نوع "القواعد الفقهية"، وهنالك رباطٌ جامع بينهما، وهو العموم والخصوص.

٥. نصَّ العلامة ابن عاشور ـ رحمه الله ـ على ثلاث عشرة آية من كتاب الله أنها من "جوامع الكَلِم"، وعلّل هذا الوصف لها في كلِّ موطن بحسبه، والحقُّ أنه سابقٌ في نعته تلك الآيات كلّها أو جزء منها بهذا الوصف، ومتفرّدٌ بتنصيصه عليها ، لم يسبقه أحدٌ ، أو يُضارعُه من معاصريه ، فضلاً عمن أتي بعده !.

٦. تفرّد العلامة ابن عاشور ـ رحمه الله ـ بأربعة مواطن غالب الظنّ أنه لم يجد لها قبلَه مَن طرقها بالبيان الدَّالِّ، والتناول المُرْشِد، فاعتمد بدءاً على نفسه في استخراج بيانها، واستجلاء دلالتها ، ومن ثَمَّ درجها في "جوامع الكَلِم" ، والمتبقية من المواطن المقصودة ـ وهي تسعة ـ لا يبعد بحال أنه لاح للطاهر شُعَاعُها ساطِعَاً ممن تقدّمه،فاهتبل تلك الإضاءات، ويَمَّمَ وجهه نحو تلك الإشارات، مُفيضَاً عليها من معين علمه المعهود، فأحسن التوظيف لكلام مَن سبقه عنها ، مع إمساكه بزمام التفرّد بالتنصيص على كونها كلّها من "جوامع الكَلِم".

٧. قد يجعل العلامة ابن عاشور ـ رحمه الله ـ جزءاً من آية أنه من "جوامع الكَلِم" (فعل ذلك في خمسة مواطن)، أو آيةً بتمامها أنها من "جوامع الكَلِم (فعل ذلك في ستة مواطن)، أو آيتين اثنتين كذلك (فعل ذلك في موطن واحد فقط)، حتى وصل إلى جعل ثلاث آيات متتابعات أنها كذلك (فعل ذلك في موطن واحد فقط).

٨. اعتمد العلامة ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في موطنين اثنين على "علم المناسبات" في جعل مَوطِنِهِمَا من "جوامع الكَلِم" .

على أنّه يحسن في ختام هذا البحث الإشارة إلى بعض التوصيات ، وهي :

١. "جوامع الكَلِم" بهذه الصِّيغة المعينة تمَّ تناولها في هذا البحث الوجيز بمحدودية تليق بإيجازه، على أنّ هناك مواضع عديدة عند الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ في تفسيره "التحرير والتنوير" صيغها الدالةّ عليها مختلفة ،يصدق عليها أنها "جوامع كَلِم" ، تصلح لأن تكون رسائل عليا، وستُضفي لَبِنَةً قيّمةً في مكتبة الدراسات القرآنية .

٢. كذلك بالإمكان تناول تلك المواضع من الجوانب البلاغية ، وبلاغة القرآن أحد مظاهر إعجازه، وهي منضويةٌ تحت المباحث المدروسة في علوم القرآن .

٣. في ظنّ الباحث أنّ العلامة ابن عاشور ـ رحمه الله ـ المفسّر الحديث القديم ، وبنظراته المُعَمَّقَة في تفسير كتاب الله يُعتبر مجدّداً كبيراً ، وعَلَماً بارزاً من أعلام المدرسة التفسيرية الكُبرى ، وفي قناعة الباحث : أنه ـ رحمه الله ـ لم يلق حظّه المُسْتَحَق مِن الدراسات القرآنية، برغم أنّ البَحَثَة بإمكانها أن توفيه لقاء ما قدّمه للمكتبة القرآنية بأُطروحات علمية رصينة ، أو بحوث ترقيات عميقة وجيزة ، سواءً في تناول كثير من مباحث

---

(٢٣٦) تيسير الكريم الرحمن (٩٣٢) .

(٢٣٧) في ظلال القرآن (٦/٣٩٥٥ـ٣٩٥٦) .

علوم القرآن عنده التي حواها تفسيره ، أو غير ذلك من التناولات ، وتحت إشراف علميٍ منضبط، ومَن فتشّ فالظنَّ أنه واجدٌ لا محالة !.

« المراجع والمصادر»

- الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين عبد الرحمن السُّيوطي، تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م .
- أحكام القرآن ، لأبي بكر بن العربي، تحقيق: علي البجاوي، دار الجيل ، بيروت .
- أحكام القرآن للجصاص ، لأبي بكر أحمد بن علي الرَّازي الجصَّاص الحنفي،تحقيق : مُحَمَّد الصادق قمحاوى، دار احياء التراث العربى ، بيروت ، ١٤٠٥هـ .
- أسباب نزول القرآن ، لأبي الحسن الواحدي، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت .
- الاستذكار، لأبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي ، تحقيق: سالم مُحَمَّد عطا، ومُحَمَّد علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ /٢٠٠٠م .
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن مُحَمَّد المختار الجكني الشنقيطي ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .
- أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري ، لأبي سليمان حمد الخطابي، تحقيق: مُحَمَّد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، جامعة أم القرى،ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- الأمالي (شذور الأمالي ـ النوادر)، لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي، عُنِيَ بوضعها وترتيبها: مُحَمَّد الأصمعي، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٤٤هـ/١٩٢٦م .
- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، للشيخ: لأبي بكر جابر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط٥، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .
- الإيضاح في علوم البلاغة، لأبي المعالي جلال الدين مُحَمَّد بن عبد الرحمن القزويني، (المعروف بخطيب دمشق)، تحقيق: مُحَمَّد خفاجي، دار الجيل ، بيروت، ط٣ .
- بحر العلوم ، لأبي الليث السّمرقندي، تحقيق: علي معوض وآخرون، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ .
- البحر المحيط في التفسير ، لأثير الدين أبي حيان مُحَمَّد بن يوسف الأندلسي، تحقيق:صدقي مُحَمَّد جميل، دار الفكر ، بيروت، ط ١٤٢٠هـ .
- البرهان في أصول الفقه، لركن الدّين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني، (الملقَّب بإمام الحرمين) ، تحقيق : صلاح بن مُحَمَّد بن عويضة ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .
- البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين الزركشي، تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ط١، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م .
- تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمّد الزَّبيدي، تحقيق:مجموعة من المحققين ، دار الهداية .
- تأويل مشكل القرآن، لأبي مُحَمَّد عبد الله بن قتيبة الدِّينوري، شرحه ونشره: السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، بدون تاريخ طبع .
- تحرير التحبير في صناعة الشّعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لعبد العظيم بن أبي الإصبع العدواني البغدادي المصري، تقديم وتحقيق: حفني مُحَمَّد شرف، الجمهورية العربية المتحدة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي .
- التحرير والتنوير (تحرير المعنى السّديد ، وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، لمحمد الطاهر بن مُحَمَّد بن عاشور، الدار التونسية للنشر ، تونس، ١٩٨٤هـ .
- التذكرة الحمدونية، لأبي المعالي مُحَمَّد بن الحسن بن حَمْدُون البغدادي ، دار صادر، بيروت ، ط١، ١٤١٧هـ .
- التعليقات الحسان على صحيح ابن حبّان، وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذّه من محفوظه، مؤلف الأصل: أبو حاتم مُحَمَّد بن حبّان التّميمي الدّارمي البُستي، ترتيب الأمير: أبو الحسن علاء الدين علي بن بلبان الفارسي الحنفي، مؤلف التعليقات الحسان : أبو عبد الرحمن مُحَمَّد ابن ناصر الدين الألباني، دار باوزير للنشر والتوزيع، جدة ، المملكة العربية السعودية، ط١،١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .
- تفسير ابن جزي (التسهيل لعلوم التنزيل)، لأبي القاسم بن جزي الكَلْبي، تحقيق: الدكتور: عبد الله الخالدي،شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم،بيروت،ط١٤١٦،١هـ .
- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)،لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، تحقيق : مُحَمَّد حسين شمس

الدين، دار الكتب العلمية، منشورات مُحَمَّد علي بيضون، بيروت، ط١،١٤١٩هـ .

- تفسير أبي السُّعود (إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم)،لأبي السّعود مُحَمَّد ابن مُحَمَّد العمادي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس)،تحقيق الدكتور: مُحَمَّد بلتاجي،جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، بدون تاريخ طبع .
- تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، لعبد الله بن عمر البيضاوي ، تحقيق: مُحَمَّد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ .
- التفسير البياني للقرآن الكريم، للدكتورة : عائشة مُحَمَّد علي ، (المعروفة ببنت الشاطئ)، دار المعارف ، القاهرة، ط٧ .
- تفسير جزء عم، للشيخ : مُحَمَّد بن صالح العثيمين، إعداد وتخريج: فهد بن ناصر السليمان ، دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .
- تفسير الشَّعراوي (الخواطر)، للشيخ: مُحَمَّد متولي الشَّعراوي، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.
- تفسير عبد الرزاق ، لأبي بكر عبد الرزاق ، دار الكتب العلمية، دراسة وتحقيق : محمود مُحَمَّد عبده ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ .
- تفسير القرآن، لأبي المظفر منصور السَّمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس ابن غنيم، دار الوطن، الرياض، السعودية، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .
- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، لمحمد رشيد بن علي رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠م .
- تفسير القرآن العظيم ، لأبي مُحَمَّد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرّازي ، تحقيق:أسعد مُحَمَّد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز ، المملكة العربية السعودية ، ط٣، ١٤١٩هـ .
- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ، لشمس الدين أبي عبد الله مُحَمَّد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني ، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية ، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م .
- تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) ، لأبي منصور مُحَمَّد الماتريدي، تحقيق: المحقق د: مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م .
- تفسير الماوردي (النكت والعيون)، لأبي الحسن علي بن مُحَمَّد البغدادي، (الشهير بالماوردي) ، تحقيق : السيد بن عبد المقصود ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- تفسير المراغي، للشيخ أحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، ط١، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م .
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، لمحمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ، القاهرة، ط١.
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، لمجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط١، (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) ، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م) .
- تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ : عبد الرحمن بن ناصرآل سعدي، تحقيق:عبد الرحمن بن معلا، مؤسسة الرسالة،ط١،١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر مُحَمَّد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد مُحَمَّد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١،١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م .
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكَلِم، لعبد الرحمن بن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ، وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت ط٢،١٤١٢هـ/١٩٩١م .
- جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزَّاهرة، لأحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية بيروت .
- جمهرة اللُّغة، لأبي بكر مُحَمَّد بن دُرَيد الأزدي، تحقيق:رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين ، بيروت، ط١، ١٩٨٧م .
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، لأبي زيد عبد الرحمن الثَّعالبي، تحقيق : مُحَمَّد علي معوض، وعادل عبد الموجود،دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١،١٤١٨هـ .
- حاشية الصبّان على آداب مُلاَّ حنفي، لمحمد بن علي الصبّان، المطبعة العلمية، ط١، ١٣١٠هـ .
- الخليل (معجم مصطلحات النحو العربي) ، للدكتور: جورج متري، وهاني تابري، تصدير د: مُحَمَّد مهدي علاّم، مكتبة لبنان، بيروا، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، لجلال الدين السيوطي ، دار الفكر ، بيروت .
- دليل الطالبين لكلام النحويين، لمرعي بن يوسف الكرمى المقدسي الحنبلى ، إدارة المخطوطات والمكتبات الإسلامية ، الكويت، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م .
- ديوان زهير بن أبي سلمى بشرح ثعلب، مصر، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م .
- روح البيان، لأبي الفداء إسماعيل حقي الإستانبولي الخلوتي ، دار الفكر ، بيروت .
- زاد المسير في علم التفسير، لجمال الدّين أبي الفرج بن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي ، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ .
- زهرة التفاسير، لمحمد بن أحمد بن مصطفى (المعروف بأبي زهرة)، دار الفكر العربي .
- سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني، تحقيق : شعَيب الأرنؤوط ، ومحَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م .
- سنن الترمذي (الجامع الكبير) ، لأبي عيسى الترمذي ، تحقيق وتعليق:أحمد شاكر (جـ ١،٢)، ومُحَمَّد فؤاد عبد الباقي(جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض(جـ٤،٥)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي،مصر،ط٢، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .
- سنن الدارقطني، لأبي الحسن علي بن عمر الدارقطني، حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الارنؤوط، وحسن عبد المنعم شلبي، وعبد اللطيف حرز الله، وأحمد برهوم ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٤ هـ /٢٠٠٤ م .
- السنن الكبرى، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي ، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدَّم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م .
- شرح ألفية ابن مالك، للشيخ مُحَمَّد بن صالح بن مُحَمَّد العثيمين، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية ، http://www.islamweb.net
- شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، لأبي الفتح تقي الدين مُحَمَّد ابن مطيع القُشَيري (ابن دقيق العيد) ، مؤسسة الريان، ط٦ ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، لأبي القاسم هبة الله اللالكائي، تحقيق: أحمد بن سعد الغامدي، دار طيبة ، السعودية، ط٨ ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م .
- شرح السّنة، للحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ومُحَمَّد زهير الشَّاويش ، المكتب الإسلامي ، دمشق ،بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
- شرح صحيح البخارى لابن بطال، لأبي الحسن علي بن بطال ، تحقيق: أبو تميم ياسرابن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ط٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م .
- شعب الإيمان، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، حققه ، وراجع نصوصه ، وخرّج أحاديثه الدكتور: عبد العلي حامد، أشرف على تحقيقه،وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي،صاحب الدار السَّلفية ببومباي،الهند،مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السّلفية ببومباي، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م .
- الشّفاء في بديع الاكتفاء، لشمس الدّين مُحَمَّد بن حسن النَّوَاجي، تحقيق ومراجعة د: محمود حسن أبو ناجي، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ .
- الصِّحاح تاج اللُّغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين ، بيروت، ط٤، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م .
- صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق : مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، اليمامة ، بيروت ، ط٣، ١٤٠٧هـ .
- صحيح الجامع الصَّغير وزياداته، للشيخ الألباني، المكتب الإسلامي .
- صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق : مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، بدون تاريخ طبع .
- ضعيف الجامع الصغير وزيادته، لأبي عبد الرحمن مُحَمَّد ناصر الدين الألباني ، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي .

- الطِّرَاز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للمؤيد بالله يحيى بن حمزة الحسيني العلويّ الطالبي ، المكتبة العصرية ، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ .
- العقد الفريد، لأبي عمر أحمد بن مُحَمَّد بن عبد ربه،دار الكتب العلمية، بيروت،ط١،١٤٠٤هـ .
- غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني، لأحمد بن إسماعيل الكوراني، (من أول سورة النجم إلى آخر سورة الناس)، دراسة وتحقيق: مُحَمَّد مصطفي كوكصو (رسالة دكتوراه)، جامعة صاقريا كلية العلوم الاجتماعية ، تركيا، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧ م .
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، لنظام الدين الحسن القمي النيسابوري ، تحقيق : الشيخ زكريا عميرات ، دار الكتب العلميه ، بيروت ، ط١، ١٤١٦هـ .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، لأبي الفضل أحمد بن حجر العسقلاني، دار المعرفة ، بيروت، ١٣٧٩هـ . رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، وعليه تعليقات العلامة:عبد العزيز بن عبد الله بن باز .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لزين الدّين عبد الرحمن بن رجب الحنبلي ، تحقيق: مجموعة من الباحثين ، مكتبة الغرباء الأثرية ، المدينة النبوية ، ومكتب تحقيق دار الحرمين ، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .
- فتحُ البيان في مقاصد القرآن ، لأبي الطيب مُحَمَّد صديق خان الحسيني البخاري القِنَّوجي ، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، المكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا ، بَيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .
- فتح الحي القيوم بشرح روضة الفهوم ، مخطوط بالمكتبة الأزهرية بالقاهرة ، المجلد (٦)، معارف عامة ، رقم : (٣٠٨١) الإمبابي ٤٩٠٧٢، كُتب بقلم معتاد بخط مُحَمَّد ابن إبراهيم السّروري سنة ١١٤١هـ، ويقع المخطوط في (٣٢٩) لوحة . ولدى الباحث صورة كاملة منها .
- فتح القدير، لمحمد بن علي الشوكاني اليمني ، دار ابن كثير، دمشق، ودار الكلم الطيب ، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ .
- في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ .
- القاموس الفقهي لغةً واصطلاحاً،للدكتور:سعدي أبو حبيب،دار الفكر،دمشق،ط٢، ١٤٠٨هـ.
- القواعد الحسان لتفسير القرآن، لأبي عبد الله عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م .
- القواعد والضّوابط المستخلصة من التحرير ، لجمال الدين الحصري الندوي، مطبعة المدني، ١٤١١هـ/١٩٩١م .
- الكتاب، لعمرو بن عثمان بن قنبر (سيبويه) ، تحقيق: عبد السلام مُحَمَّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
- كتاب التعريفات، للشريف علي بن مُحَمَّد الجرجاني ، حققه وضبطه وصححه جماعة مِن العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م .
- كتاب الصناعتين : الكتابة والشّعر ، لأبي هلال الحسن العسكري، حقّقه وضبط نصّه د: مفيد قميحه، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، د٢، ١٤٠١هـ، ١٤٠٤هـ .
- كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق د : مهدي المخزومي، ود: إبراهيم السَّامرائي، دار ومكتبة الهلال .
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لجار الله أبي القاسم محمود بن عمرو الزّمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ .
- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، لأبي إسحاق أحمد بن مُحَمَّد الثعلبي، تحقيق الإمام : أبي مُحَمَّد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير السَّاعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢ م .
- الكليَّات معجم في المصطلحات والفروق اللُّغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الكَفَوي الحنفي، تحقيق: عدنان درويش، ومُحَمَّد المصري، مؤسسة الرِّسالة، بيروت .
- لطائف الإشارات (تفسير القشيري)، لعبد الكريم بن هوازن القشيري، تحقيق : إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر، ط٣ .
- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور الإفريقي، دار صادر ، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ .
- اللُّباب في علوم الكتاب،لأبي حفص بن عادل الحنبلي،تحقيق:عادل عبد الموجود ، وعلي مُحَمَّد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م .

- لباب التأويل في معاني التنزيل، لأبي الحسن علاء الدّين علي الشيحي (المعروف بالخازن) ، تصحيح: مُحَمَّد شاهين، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشَّاعر، لضياء الدين نصر الله بن مُحَمَّد بن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ، القاهرة .
- مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن مُحَمَّد الميداني النيسابوري، تحقيق: مُحَمَّد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة ، بيروت .
- مجمل اللُّغة ، لأحمد بن فارس الرازي، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط٢ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين بن مُحَمَّد القاسمي، تحقيق : مُحَمَّد باسل عيون السّود، دار الكتب العلميه ، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ .
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي مُحَمَّد عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السّلام عبد الشافي مُحَمَّد، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ .
- المحرر في أسباب نزول القرآن (من خلال الكتب التسعة)، للدكتور : خالد بن سليمان المزيني ، دار ابن الجوزي، الرياض، ط١٤٢٧،١هـ .
- مختار الصّحاح ، لمحمد بن أبي بكر الرّازي ، عناية : يوسف الشيخ مُحَمَّد ، المكتبة العصرية، بيروت، ط٣، ١٤١٨هـ .
- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله مُحَمَّد الحاكم (المعروف بابن البيع)، تحقيق: مصطفى عطا، الناشر: دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، للإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، و عادل مرشد، وآخرون، إشراف د: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة ، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م .
- مصنف ابن أبي شيبة ، لأبي بكر عبد الله بن أبي شيبة، تحقيق: مُحَمَّد عوامه، رقما الجزء والصفحة يتوافقان مع طبعة الدار السّلفية الهندية القديمة، وترقيم الأحاديث يتوافق مع طبعة دار القبلة .
- معاني القرآن وإعرابه،لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، تحقيق:عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب ، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
- معجم اللُّغة العربية المعاصرة، للدكتور : أحمد مختار عبد الحميد ، عالم الكتب، ط١، ١٤٢٩هـ.
- معجم مقاييس اللُّغة، لأحمد بن فارس الرازي، تحقيق:عبد السَّلام هارون ، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- المعجم الوسيط، مجمع اللُّغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى، وأحمد الزيات،وحامد عبد القادر ، ومُحَمَّد النجار)، دار الدعوة .
- معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية ، طبع مؤسسة زايد بن سلطان للأعمال الخيرية والإنسانية، ومجمع الفقه الإسلامي الدولي، ط١، ١٤٣٤هـ .
- مفتاح العلوم، لأبي يعقوب، يوسف بن أبي بكر السكاكي الخوارزمي الحنفي،ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- مفردات ألفاظ القرآن ، للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داوودي، دار القلم ، دمشق، والدار الشّامية، بيروت، ط٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .
- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، لمحمد بن علي التهانوي ، تقديم وإشراف ومراجعة : رفيق العجم ، تحقيق :علي دحروج ، نقل النص الفارسي إلى العربية : عبد الله الخالدي ، الترجمة الأجنبية : جورج زيناني ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ط١، ١٩٩٦م .
- الموطأ، لمالك بن أنس، تحقيق:مُحَمَّد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الإمارات، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- النحو الوافي، لعباس حسن ، دار المعارف، ط١٥ .
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسُّور، لإبراهيم بن عمر البقاعي،دار الكتاب الإسلامي،القاهرة .
- النكت في إعجاز القرآن،لأبي الحسن الرمَّاني(ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، حقّقها وعلّق عليها: مُحَمَّد خلف الله، ومُحَمَّد زغلول، دار المعارف، القاهرة، ط٤ .
- النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين أبو السَّعادات بن الأثير الجزري، تحقيق:طاهر الزاوي، ومحمود الطناحي، الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ .

- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، لأبي مُحَمَّد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي ، جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشَّاهد البوشيخي ، مجموعة بحوث الكتاب والسنة ،كلية الشّريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة الشّارقة، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م .
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي،تحقيق:عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية ، مصر.
- وحي القلم ، لمصطفى صادق الرافعي ، دار المعارف ، مصر .
- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي ، تحقيق وتعليق الشيخ: عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ: علي مُحَمَّد معوض، والدكتور : أحمد مُحَمَّد صيرة، والدكتور : أحمد الجمل، والدكتور : عبد الرحمن عويس ، قدمه وقرظه الأستاذ الدكتور : عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت .

Abstract

The holy Quran containing knowledge, eloquence and coherence is a true revelation from Allah. Its meanings and references are so breathtaking. It is a miraculous. Some verses of the Quran are a perfect example of conciseness of speech because they convey many meanings in few words. This research revealed a glimpse of that aspect mentioned by Mohammad Altahir Bin Ashor (died 1393 AH) - who was a famous scholar of modern explanation of Quran – in his famous book Altahreer wa altanweer.

This research traced thirteen of those verses from that book and compared his explanation to other scholars'. The title of this research: "Verses that Mohammad Altahir Bin Ashor considered as examples of conciseness of speech; tracing, studying and comparing."

This research consisted of an introduction, four chapters a conclusion and two indexes.

The first chapter: four introductions and requirements.

The second chapter: five requirements.

The third chapter: four requirements.

The fourth chapter: four requirements.

The researcher thought that this brief research including knowledge, comparison, results and recommendations would add to the field of Quranic studies..

Key words: conciseness of Quranic speech, Fiqh rules, Quranic verses comparison, retribution, eloquence, winning, evidence of prevention, reasons of corruption emergence.